مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النُّورِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النّور

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة النور

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾

عنيت واهتمت سورة النور بالأحكام والحدود والأخلاق، والآداب والتربية، والأمر بالستر والعفاف. فبدأ مطلعها بتعظيم منزلة هذه السورة، والإشادة بها ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ سورة أنزلها ربكم إليكم، وأوجب عليكم ما فيها من التشريع، وذلك بفرضها وتقدير ما فيها من الحدود والأحكام، المستوجب عليكم العمل بها. فإنها سورة عظيمة القدر. قد ابتدأت بالتنبيه، ولفت الانتباه والنظر والفكر إلى أنها سورة مُنزلة من الله تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا ﴾ فهي سورة من جميع سور القرآن. وإنه إنزال إليكم عظيم من الله الكريم، وأنها متضمنة لمضمون جليل القدر والعلم والفقه.

وفي ابتداء السورة بجملة ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا ﴾ شد الانتباه إلى ما بعدها من البيان، إذ أن كل كلمة وجملة في الآية الكريمة تشد وتحث النفس على متابعة ما أُنزل فيها من الفرض، والآيات البينات، التي يحصل بها التذكر. كما أنه أسلوب تنبيه لها ولمقامها ومحتواها العظيم. وكذلك تنبيه إلى عظيم العناية بها، حيث أَسْنَد الرحمن الرحيم الإنزال إليه جَلَّ جلاله ﴿ أَنزَلۡنَٰهَا ﴾ ليفيد التفخيم والتعظيم والتشريف لها. وبيان العناية بها، وتعظيم الذي فيها من الأحكام. بما يفيد أيضاً: عناية ربكم بكم أيها الناس، بأن أنزل سورة النور إليكم. وفي ذلك تنبيه العباد إلى ما فاتهم وغاب عنهم من الأحكام الشرعية، ومما نسوه من فطرتهم التي فطرهم عليها ربهم تبارك وتعالى، كالستر والحياء والعفاف.

ثم أوضح وأخبر سبحانه وتعالى عن وجوبها، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَفَرَضۡنَٰهَا ﴾ أي: وأوجبنا عليكم ما فيها من أحكام، وألزمناكم العمل بما فيها من الأمر والنهي، والتشريع والأحكام والحدود، وما حرمناه عليكم من المحرمات، وما أبحنا وحللنا لكم من الحلال والمباح. وفي تعيين فرضها دليل على لزوم ووجوب أحكامها. وهذه الإطلالة بهذا التنويه الكريم، فيه شد لعوامل التتبع والتتابع عند القارئ والسامع لآيات السورة، وما فيها من فرض بقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ ﴾ فالذي أنزله سبحانه وتعالى في هذه السورة آيات كثيرة قد اتصفت بوضوحها وضوحاً بيناً لا غموض فيه. وفي هذا استحثاث تشويق لمعرفة تلك الآيات البينات، ومتابعتها في السورة. ﴿ فِيهَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ ﴾ فالآيات التي فيها واضحات ومُفَسَّرَات، بما ينفي صعوبة فهمها. وكذلك تأتي بمعنى أنها مبينة للحلال والحرام والحدود، والمأمور به، والمنهي عنه، توضيحاً جلياً بيناً، يدرك بها العباد أنها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله سبحانه وتعالى. فتهدي إلى صراط الله المستقيم.

ثم بيان التعليل والسبب الذي يجب أن يتنبه له الْمُخَاطَبُون وهو ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ بأن تستذكروا وتدرسوا وتتعظوا بما فيها من الأحكام؛ على وجه الاستمرار والتعاقب والتتالي، الذي يمنع الغفلة والنسيان، بحيث لا يغيب عنكم ما فيها من التوجيهات، ومن أحكام ربكم. فهو تعليل لما يجب عليكم فيها من التذكر المستمر. وفي هذا الإخبار الابتدائي قبل بيان ما في السورة من أحكام، يغرس ويعزز ويؤكد الأهمية القصوى لما هو قادم من الأحكام والتشريع والتوجيه، مع إثارة الانتباه والتَّشَوُّق لمعرفة ومتابعة ما هو قادم من الأحكام، فإن في ذلك شد الذهن إلى معرفة ما يجب أن يذكره وما يتذكر به من الآيات والأحكام المفروضة. وفي هذا إعلام بعظيم التشريع الذي ستتناوله هذه السورة. بما يدل على عظمته، وعظمة الْمُشَرِّع له سبحانه وتعالى، وما فيه من الأحكام المحكمة التي تعضد فطرة النفس التي فطر الله تعالى عليها العباد، من محبة مكارم الخلاق، وحفظ الأعراض، ونبذ الظلم وكرهه، ومحبة الحياء والستر، والآداب، وكراهة أن يناله شيء من الفساد والفسق.

وابتدأت سورة النور الشروع في أحكامها بحكم الزانية والزاني، الأنثى والذكر ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بتعيين الزانية، وهي التي مَكَّنَت الرجل الذي لا يحل لها أن يطأها. وأما الزاني فهو: من وطأ امرأة لا يحل له وطؤها. ومن فوائد تقديم الزانية على الزاني ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾ ما ذكره الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قُدِّمَت الزانية في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان، زنى النساء

فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكن مجاهرات بذلك[١] فكانت هي الطالبة، وهي المعلنة له. فجاءت صدارة الزانية من باب التغليظ، ليحصل الردع، بسبب طلبهن الوطء بالزنا، ولتقبيحه وتعظيمه في كل وقت، لأن في امتناعهن صد للرجل عن طلبه. مما يفيد دقة منهجية القرآن في المعالجة، التي تبين إعجازه حتى في التقديم والتأخير. فامتناعها يتحقق به امتناع الرجل، بعدم تمكينه من نفسها.

ثم ذكر عَزَّ وجل الحكم فيهما، وهو ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ بأن يُجلد كل واحد من الزانية والزاني مائة جلدة. قال المفسرون: ومعنى الآية: الزانية والزاني إذا كانا حُرين بالغين بكرين ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[٢] ثم بين وفَسَّر تبارك وتعالى نوع المعاملة في تطبيق الحد ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ ولا تتعاملان معهما عند إيقاع الجلد برحمة وشفقة. وهذا يتطلب ألا يكون منفذ الجلد مطاوعاً لقلبه إن حصل لديه نوع أو درجة من الرأفة، لأن الرأفة أمر قلبي، ويظهر على السلوك والأداء، ومنها أداء حكم الجلد. فورد معالجة ذلك بما يتناسب مع الطبيعة البشرية، فلم ينهاه سبحانه وتعالى عَمَّا هو موجود في القلب، لأنه قد يحصل ذلك، ولكن ورد النهي عن أن يتأثر تطبيق الحد بما قد يكون في القلب. وهذا من الإعجاز القرآني العظيم في المعالجة. فعالج القرآن الكريم ما قد يكون في القلب من الرأفة التي تنعكس على حكم متعلق بدين الله تعالى.

ولذلك ربط سبحانه وتعالى النهي عن الرأفة بدينه المتضمن لأحكامه ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ فلا تأخذكم رقة في تطبيق وإنفاذ أحكام الله تعالى، التي هي جزء من تشريع الدين. مما يدل على أن تطبيق الحدود الشرعية هي جزء من دين الله تعالى، فلا تُخضع منها شيء للقلب. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: لا تأخذكما بهما رأفة في إقامة حد الله تعالى عليهما، الذي افترض عليكم إقامته عليهما[٣] ويفهم منه كذلك أن هذا التنبيه والأمر لا يعني إلحاق الموت بهما.

ومن دقائق البيان الكريم ربط الرأفة بالدين ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ بما يفيد أن هذا الحكم هو من الدين، فلا تتهاونوا فيه بسبب رأفتكم. ثم عزَّزَ وأكد ذلك سبحانه وتعالى بأن ربط تطبيق الحد بحقيقة الإيمان ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ فإن كنتم محققين ومحقين في إيمانكم، وتؤمنون باليوم الآخر الذي فيه الحساب والجزاء فطبقوا الحد فيهما كما أمرتكم به، من غير رأفة بهما. فإن حقيقة الإيمان تظهر في تطبيق الحد كما أمر به جَلَّ في علاه. ومن دقائق البيان التوجيهي أن أضاف الله تبارك وتعالى على الإيمان به

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/١٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٠/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٤٤/١٧)

الإيمان باليوم الآخر. لأن فيه التذكير بالعودة له عَزَّ وجل، وأنه سَيُحاسب كل إنسان على ما فعل، وما تهاون فيه، وما ترك مما هو واجب عليه. فكل إنسان مأخوذ بما عمل.

ولتحصيل الوعظ في قلوب الناس حتى يبتعدوا عن الزنا، أمر سبحانه وتعالى أن يحضر المشهد الذي فيه تطبيق الحد مجموعة من المؤمنين ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ لأن في ذلك المشهد تربية للنفوس، ووعظ لها، وتخويفها من الوقوع في الزنا، وبيان شدة عقوبته، وما يحدثه من التشهير بالزاني والزانية، الذي يردعهما كجانب علاجي، ولغيرهما كجانب وقائي. مما يبين أن مقاصد الإسلام عظيمة الأثر والأهداف والغايات، ولذلك يكون في تعطيلها ما يُجَرِّئ الناس على البغي والفساد، وهتك أعراض الناس. وهذا الحكم هو لغير المحصن، وهي المرأة التي لم تتزوج، والرجل الذي لم يتزوج. ولهذا الموضوع أحكام فقهية كثيرة، متعلقة بما يُضرب به، ومواقع الضرب، وما يتعلق بوصول الأمر للحاكم، وشأن من لم يصل أمره للحاكم، ودرء الحدود بالشبهات، وغيرها مما تناولته كتب الفقه، وبعض كتب التفسير، مثل: الجامع لأحكام القرآن للإمام لقرطبي رحمه الله تعالى.

ثم يُشدد سبحانه وتعالى في تقبيح الزنا، وزجره، وزجر فاعليه، بقوله عَزَّ وجل ﴿ **ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فإن الذي يليق بالرجل الزاني هو أن ينكح زانية مثله ﴿ **ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً** ﴾ فإن الزانية هي التي تليق به إن أراد الزواج، إن لم يتب من فاحشة الزنا ﴿ **أَوْ مُشْرِكَةً** ﴾ أو أن يتزوج مشركة لا ترى حرمة ذلك، ولا تؤمن بالبعث، وما يتبعه من الحساب والجزاء. فساوى سبحانه وتعالى بين زواجه من زانية مسلمة بمشركة كافرة، بما يفيد تغليظ واستقباح الزنا. وكذلك الزانية، فإنه لا يليق بها إلا مثل ما يليق بالزاني من الرجال ﴿ **وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ﴾ مما يفيد تساويهما في التقبيح. وقد أضاف الله تبارك وتعالى أشد التقبيح والخزي إلى ما سبق ورودُه في الآية التي قبلها. مما يدل على تبشيع وتشنيع الزنا، والزانين أو الزناة. ومن دقائق البيان أن قَدم هنا الزاني على الزانية، لأن الطالب في شأن الزواج هو الرجل.

ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد من التغليظ ﴿ **وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فإنه محرم على المؤمنين نكاح الزناة. مما يبين أن في هذا أشد التشنيع والتبشيع للزنى وللزناة، والإشارة إليه بالمنع الذي يفيد الزجر عنه. فإن الزاني لا يُزَوَّج بعفيفة، وأن الزانية لا يتزوجها العفيف. مما يحصل به التأديب بالزجر، والتقبيح لهم بالمنع والتحريم، مع مقتهم من المؤمنين. كما يفيد: أن الإسلام يقيم العلاقات الزوجية على النقاء والطهارة والنظافة، بما يحفظ الأنساب، والأعراض، والبيوت، ويضبط استقرارها، ويؤسس لها القاعدة التي تجمع الزوجين بغير

افتراق، إلا بالأسباب الموجبة. فإنه دين مكارم الأخلاق، والآداب، والعفاف والحشمة. مما يلزم المؤمنين تربية أولادهم على مكارم الإسلام، وتقبيح هذه الفاحشة في نفوسهم، والتنفير منها بأقوى وسائل التنفير.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ
أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ
عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى معالجة التُّهَم من القذف ونحوه. بما يضبط حياة الناس، ويحفظ أعراضهم مما يخدشها، وينالها بالتهم. وهذا من كمال التشريع العظيم في ضبط وحفظ وصيانة العلاقات الاجتماعية، وأعراض الناس. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ فإن الذين يقذفون ويتهمون المؤمنة المحصنة بالزنا من غير أن يأتوا بأربعة من الشهداء، فيشهدون على صحة قوله ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ فإن الرامي يُعَاقب بجلده ثمانين جلدة ﴿ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا ﴾ وتُنزع منه الثقة أبداً، فلا تقبل له شهادة أبداً، بسبب بهتانه للمحصنة، ورميها بما ليس فيها، فإنه من زمرة الفساق؛ الغير عدول. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي الحرة البالغة العفيفة. وإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه ايضاً، ليس في هذا نزاع بين العلماء. فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله، درأ عنه الحد[1] وهذا دليل على عناية شريعة الله تعالى بضبط حياة الناس، وصيانتها وحفظها من التعرض لها بما يخدشها. والعقوبة الثالثة هي: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ أي: خرجوا عن أحكام شريعة الله تعالى. لأن الفسق هو الخروج عن الأصل. فخرجوا عما يُوجب لهم العدل والصدق والأمانة.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٧٥/٣)

وبدأت الآية الكريمة بتحديد من ينطبق عليهم حد رمي المحصنات، وهم الرامون، أي: القاذفون ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ والرمي: هو التهمة، بالقذف، لأن الرمي هو قذف الشيء، فسماه سبحانه وتعالى رمياً لقوة أثر الرمي على من يصيبه. مما يبين أن رمي الكلام المشين الجارح له أثر في النفس؛ كالأثر في البدن، بل ربما يبرأ الذي في الجسد، ولا يبرأ الذي أصاب النفس من جرح الكلام، فيبقى الذي أصاب النفس من جراحات اللسان، كالطعن في الأعراض، بل ربما يمرض، وقد يموت من أثر الإصابة في النفس. كما حدث لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الألم العميق نتيجة التهمة لها، كما ورد في صحيح البخاري رحمه الله تعالى، من حادثة الإفك: قالت: فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتي ويومي، حتى أني لأظن أن البكاء فالق كبدي[1] فتأمل شدة الأثر عليها رضي الله تعالى عنها، ولكن برأها الله تعالى من فوق سبع سماوات، كما سيأتي بيانه في مكانه من هذه السورة المباركة.

ومن مزيد فوائد كلمة ﴿ يَرْمُونَ ﴾ أن الرمي يكون في البعيد، مما يفيد أن كلام القاذف في المقذوف كان عن بُعد عنه من حيث المكان، مما يدل على قوة أثره على الْمُرْمَى عليه. مما يبين دقة ألفاظ القرآن الكريم، بأنها بلغت الغاية في كل حرف وكلمة. فاشتمل نص الآية الكريمة على التشريع والحكم، والأمر والنهي، والتوجيه والوعظ.

ومعنى ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ أي: العفيفات، وهي المسلمة الحرة البالغة العفيفة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالمحصنات النساء. وخَصَّهن بالذكر لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم. ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم، بلا خلاف بين علماء هذه الأمة[2] وفي تخصيص النساء بصفة الإحصان، لغلبة وقوع الرمي عليهن. وقد ذكر بعض أهل العلم أن شمولية لفظة ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ للرجال والنساء هو من باب التغليب.

وقيل: أن المراد بالمحصنات الفروج، فيشمل الرجال والنساء. ولكن الأول أظهر، بأن ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ هُنَّ النساء، لأن أثر قذفهن أشنع. مما يدل ويفيد أن للتخصيص في كتاب الله تعالى مراد وهدف بعينه، ومقصد لمن خصه بالتخصيص. فخص النساء، وجعل الرجال تابعين لهن، لأن هوله عليهن أكبر وأعظم، مع عدم قدرتهن على تحمل تبعات ذلك من الأضرار النفسية والمجتمعية عليهن. وفي هذا إعجاز في باب التخصيص.

مما يدل على أن من التزم العفاف فقد أوجب لنفسه الحصانة من ألسنة الناس، بحكم من الله تعالى، الذي حَصَّنه بالأحكام الشرعية، وأن من اتهمه وجب في حقه القصاص بالجلد ثمانين جلدة. وفي هذا ضبط لسلوك المجتمع، ولألفاظهم، ولما قد يجده المبغض لغيره من إرادة السوء به، فيتهمه بما ليس فيه. ففي تطبيق الحد

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١٢٣/٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٧/٤)

تبرئة للمقذوف، وتفسيق للقاذف، بإقامة الحد عليه، وعدم قبول شهادته، كما أن تفسيق القاذف ورد حكماً من الله تعالى ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ فيتبعه تفسيق المؤمنين له.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الشرط الذي يُوجِب إقامة الحد على القاذف، وهو ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي: يشهدوا بوقوع الزنا من المقذوفة، فإن لم يأتوا بالشهود ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ وهو الضرب، وسُمّي جلداً، لأنه يقع على جلد المضروب أو المجلود. ثم تزداد العقوبة باستمرار أثرها ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ﴾ لأنهم أصبحوا بما صدر منهم من القذف غير عدول، وأكد ذلك عَزَّ وجل بلفظة ﴿ أَبَدًا ﴾ التي تفيد التأكيد على استمرار عدم قبول الشهادة، فهو أمر دائم لا ينقطع عنهم ما لم يتوبوا ويقلعوا عما قالوا. مما يدل على عظيم إثم رمي الغير بالتهم، وخاصة منها الكبائر كالزنا. وفي هذا تربية للمجتمع على التحرز، ولزوم الآداب، ومكارم الأخلاق، والابتعاد عن إيذاء الآخرين. بل وزاد من تشنيعهم أن فَسَّقَهم اللهُ سبحانه وتعالى ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ أي: خرجوا عن أحكام شريعة الله تعالى. لأن الفسق هو الخروج عن الأصل. فخرجوا عما يُوجب لهم العدل والصدق والأمانة، فخرجوا من ذلك إلى الذم. بل تشنيع فعلهم، بأن جعلهم ربنا وتبارك وتعالى المخصوصون بالفسق ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ﴾ الذين تمثلوا بالفسق ﴿ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ وكأنهم المخصوصون أصلاً بالفسق، لإفادة المبالغة في شناعة فسقهم، فكأنهم تمادوا فيه إلى أقصى ما يكون من الفعل. وفي هذا تربية علاجية، ووقائية للمجتمع، وأن أعراضهم محصنة من الله تعالى بأحكامه الشرعية التي تضبط حياة الناس، وتؤلفهم وتجمعهم ولا تفرقهم إلا بالحق المبين. مما يوضح أن هذا الدين هو دين أخلاق، وأن أحكامه نعمة عظيمة من الله تعالى على عباده.

ثم يضع الله تعالى العلاج للقاذف من كل وجه ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيستثنى الله تبارك وتعالى من الحكم على القاذف بالفسق، ورَد شهادته في حال أنه صحح من نفسه، بتكذيبه لما قاله عن المقذوف؛ من رميه له بالزنا، وتاب إلى الله تعالى مما صدر منه، وأصلح حاله، بتغيير مسلكه ومنهجه وأخلاقه، قال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ فهذا استثناء ممن حكم الله تعالى عليهم بالفسق، ورَد شهادتهم. فجملة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ﴾ تعطي الاستثناء لمن صدرت منهم التوبة ﴿ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي: من بعد قذفهم للمحصن، والتوبة هي: الإقلاع عن تهمته بقذفه غيره بفاحشة الزنا، والندم، والعزم على أن

لا يعود إلى ذلك، والطلب من الله تعالى أن يقبل توبته. ويلزم من تاب أن يُصلح حاله ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ أي: أصلحوا أحوالهم وسلوكهم وأخلاقهم، فَغَلَب عليهم الصلاح.

قال السعدي رحمه الله تعالى: فالتوبة في هذا الموضع، أن يكذب القاذف نفسه، ويُقِر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يُكَذِّبَ نفسه، ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء. فإذا تاب القاذف، وأصلح عمله، وبَدَّل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تُقبل شهادته على الصحيح. فإن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً[١] ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى يمحو ويستر، ويرحم العبد إذا تاب وآب إلى ربه. وفي هذا توجيه للمؤمنين بأن يمحوا آثار الأحكام التي نالت القاذ بعد تكذيبه لنفسه، وتوبته، بأن يعدلوا عن ذلك السابق، وما ترتب عليه. لأن ربكم تبارك وتعالى متصف بالمغفرة والرحمة. ولما أن البيان ورد من الله تعالى على وجه التعميم، سواء فيما يخص القاذف التائب أو في غيره فيما يرتكبه العبد من الذنوب والزلات والتقصير، فإنه إذا تاب وأصلح من حاله لزم قبوله في المجتمع، فكما أن الله تعالى غفور رحيم، فكذلك يجب أن يكون ذلك من حال المؤمنين. فنحمد الله تعالى على أنه غفور رحيم. وذكر الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: اتفاق العلماء على أن هذا الاستثناء لا تعود إلى جملة حكم الجلد، بل يجلد التائب كالمصر. وذكر كذلك رحمه الله تعالى قول الجمهور، بأن: هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فإذا تاب القاذف قُبلت شهادته، وزال عنه الفسق[٢] وهناك مسائل فقهية كثيرة قد انبثقت عن هذه الآية والتي قبلها، تناولتها بعض كتب التفسير بالتفصيل، مثل كتاب الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي رحمه الله تعالى. وكذلك كتب الفقه.

وفي هذا تحفيز ودعم للقاذف بأن يتوب، وأن يُعَدِّل ويصحح سلوكه، وأن يعود إلى حالته الطبيعية السابقة، فيعود إلى مجتمعه. بعد أن أزال التهمة عن الذي اتهمه وقذفه بالزنا. وفي هذا تصحيح لأفهام الناس عما لحق بالمقذوف من الضرر، وإزالة ذلك، بما يبني المجتمع بناء صالحاً. مما يبين ويفيد أن منهج الله تعالى نور كما هي سورة النور نوراً من الله تعالى على العباد. فإن أحكامه سبحانه وتعالى تنير الطريق للعباد بالأحكام التي تعالج قضايا المجتمع المتنوعة، ومنها قضية رمي المحصنات.

ثم يتدرج السياق الكريم إلى حالة أخرى من القذف، وهو المتعلق بين الزوجين. وهذا التفريق بين الحالتين هو من دقة تفاصيل الأحكام في كتاب الله تعالى، وتدرجه من معالجة العام إلى معالجة الخاص. ومن المعالجة الاجتماعية إلى المعالجة الأسرية، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٨٣)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٧)

فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فالذين يحصل منهم التهمة بالقذف لأزواجهم بفاحشة الزنا، ولم يكن عندهم شهداء على ذلك، إلا أنفسهم، فيشهد أحدهم أربع شهادات بالله تعالى أنه صادق فيما قال.

فهذه الحالة هي حالة القذف ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسر عليه إقامة البينة، أن يلاعنها كما أمر الله عَزَّ وجل[١] فإذا تَعَسَّر إقامة البينة بالشهود ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ بأن تَعَذَّرَ وجود الشهود الذين يشهدون عليها بالزنا، فإن المعالجة و المخرج يتم بالانتقال إلى ما أوجده الله سبحانه وتعالى، وهو ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فالأمر الذي يزول به حد القذف، ويسقط به عن القاذف هو أن يشهد أربع شهادات، فَيُحَلّفه الحاكم أو القاضي أربع شهادات بالله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ بأنه محق وصادق فيما رمى به زوجته من الزنا. فقامت شهادته مقام الشهود. لأن الذي يغلب على الأزواج رفضهم تدنيس عرض زوجاتهم، لأنه يشعر أن عرضها جزء من عرضه. وكذلك له الحق في حماية نسله من غيره. وبالتالي لا يستوجب به الحد، لأن شهادته الأربع شهادات، مع الخامسة ترفع عنه الحد، كونها تقوم مقام الشهود. مما يدل على عظيم التشريع في تقرير الحكم على المحصنات، وتقرير الحكم في شأن الزوج مع زوجته بهذه الطريقة التي لا يمكن أن تكون إلا من عليم خبير. فسبحان الله والحمد لله رب العالمين.

ومن دقائق البيان، أن اقتصر البيان على جملة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ ولم يذكر تهمة الزنا، اكتفاء بما سبق. تعزيزاً للحياء اللفظي، الذي يربي في المؤمن التورع عنها. ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ وتعذر وجود الشهود الذين يشهدون بوقوع الزنا إلا هم على أنفسهم ﴿ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ﴾ فاقتصرت المشاهدة عليه فقط. فليس هناك ثمة شاهد إلا نفسه، بمشاهدته للوقيعة، فيكون الحكم هو ﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ بمعادلة الأربع شهادات منه بأربعة شهود. ثم زيادة ﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ ويزيد على الأربع الشهادات المعادلة لشهادة الشهود، شهادة خامسة منه عليها، وهنا تكون الخامسة متضمنة للعقوبة القاسية عليه من الله تعالى ﴿ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٧٦)

وهو الدعاء على نفسه إن كان كاذباً فيما رماها به من الزنا ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ ﴾ وهو أن يطرده الله تعالى ويبعده عن رحمته. وهو الطرد والإبعاد على سبيل السخط من الله تعالى عليه إن كان كاذباً عليها فيما رماها وقذفها به من فاحشة الزنا.

وقد استقلت اللعنة الخامسة عن الأربع المتقدمة لأنها مخصوصة بلعن النفس، بينما الأربع الشهادات كانت متعلقة بصدق القول فيما رماها به، وشاهَدَهُ بنفسه. فالأربع الشهادات متعلقة بالإثبات. بينما الخامسة كانت عقوبة عليه إن كان كاذبا. وهذا من غزارة الدقة في كتاب الله تعالى للأحكام المؤكدة بأن هذا القرآن هو من عند الله عَزَّ وجل، وكذلك هو غزارة في دقة السياق المُظهر لكمال الإعجاز في أدق البيان للمراد والسياق الفذ العجيب. وفي هذا حكمة عظيمة في معالجة ما قد يحصل بالأحكام التي هي في غاية الدقة، ومسايرتها مع الممكن والمتاح من العلاج. وتوافقها مع الحال التي قد تحدث، ومراعاتها لخصوصية الزوجين.

وفي هذا بيان لعناية الإسلام بحفظ العرض، وصيانته من القذف، وتطاول اللسان بالكلام. كما فيه عناية بتحصين الفروج، واستقباح وتهجين هذه الفاحشة، وكذلك وضع الأحكام الدقيقة لها، بما يتناسب مع واقع الحال الذي يكون. مع سد الثغرات بمعالجة الاحتمالات من عدم وجود الشهود.

ولما أنه قد يحدث الكذب والفجور من أحد الطرفين، ودرءً من أن يُؤخذ الطرف الثاني بفجور أحدهما إن كان فاجراً، أوجد الله تعالى للزوجة ما تنفي به التهمة، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ويمنع عن الزوجة العذاب الذي هو الحد، ويدفع إقامته عليها أمران: الأول ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ فتقابل شهادة زوجها الأربع بمثلها، فيدفع إقامة الحد عنها شهادتها على زوجها ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ ﴾ فتعلن شهادتها عند الحاكم أو القاضي المرفوع عنده القضية، أربع شهادات، فتحلف بالله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أنه غير صادق فيما اتهمها به من الزنا. وسمى الله تبارك وتعالى الحد بالعذاب ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ لما فيه من الألم الجسدي، والألم النفسي، وحديث الناس عنها وعنه. فهو عذاب دنيوي، فكيف بعذاب الآخرة إن لم يتب منه المذنب.

والأمر الثاني الذي يلزم منه ليدرأ عنها إقامة الحد عليها هو: الدعاء على النفس ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وهو الدعاء على نفسها إن كان صادقاً فيما رماها به من الزنا، بما يفيد تغليظ الشهادات الأربع بالشهادة الخامسة ﴿ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ ﴾ وهو أن عليها مقت الله تعالى الذي

هو غضبه، المستوجب طردها وإبعادها عن رحمته. بما يفيد: السخط من الله تعالى عليها إن كان صادقاً فيما رماها وقذفها به من فاحشة الزنا.

ومن دقائق البيان أن يدعو الرجل في الخامسة باللعنة على نفسه ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بينما المرأة تدعو على نفسها بغضب الله تعالى عليها ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وفي هذا شد ذهنها لقوة العقوبة، لأن الغضب يتبعه سرعة وشدة في العقاب، وفي هذا تهويل لها، وتحذير من الكذب. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها، لكونها أصل الفجور ومادته. ولأن النساء يكثرن اللعن في العادة، ومع استكثارهن منه لا يكون له في قلوبهن كبير موقع، بخلاف الغضب[١] وفي هذا بيان لدقائق القرآن الكريم في التخصيص والتعيين، بل ومن دلائل إعجازه البياني هو اختيار لكل شيء ما يناسبه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى امتنانه على عباده بهذه الأحكام الشرعية، لمعالجة قذف الغير بفاحشة الزنا، والتي جعلت ضابطها لزوم الصدق، وتجنب الكذب والافتراء على الغير، وذلك حماية لأعراض الناس، وحفظاً للعلاقات، وتجنباً للكيد بالبهتان من بعضهم لبعض، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فلولا فضله تبارك وتعالى عليكم، بتفضله بهذه الأحكام العظيمة، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ من الإنعام والإفضال والإحسان، ومنها امتنانه عليكم بالأحكام الشرعية التي بلغت الذروة في الحكمة والمعالجة. ثم يضيف إليها تبارك وتعالى ما اتصف به عَزَّ وجل من قبول التوبة من عباده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ فيتوب على من تاب، بقبول توبة الصادق في توبته، وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه التي تعالج أموركم، فلولا ذلك الفضل منه تبارك وتعالى لوقعتم في الحرج الذي تجهلون به كيف تخرجون منه، مما ترمون به غيركم من فاحشة الزنا، ولوقع بينكم بذلك النزاع والعداوة والفوضى، ولكنه كف بعضكم عن بعض بهذه الأحكام العدل. وكذلك لولا فضله عَزَّ في علاه لنال الكاذب منها عذاب عظيم. ولشق عليكم الكثير من أموركم وتصرفاتكم التي تقعون بسببها في الحرج الذي يصعب عليكم الخروج منه، وبالتالي تجعل تعايشكم فيما بينكم مشقة عظيمة، وتعتريكم بسببها العداوة التي لا سبيل للخروج منها حين تحل بكم إلا بفضله عَزَّ وجل، والتي منها ما أنزل عليكم من أحكام تعالج ما تقعون فيه من التصرفات.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٠/٤)

كما أفاد النص الكريم: أنه لولا فضل الله تعالى ورحمته بكم، وأنه يتوب على التائبين، وأنه حكيم في أفعاله وأحكامه لعاجلكم بالعقوبة بسبب ما يكون منكم من المعاصي، ولفضح أهل الذنوب بذنوبهم، ولكنه سِتّير سبحانه وتعالى، بما تفضل عليكم به من الأحكام. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيتوب على من تاب، ورجع عن ذنبه ومعصيته. وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ بتشريعه الأحكام التي تعالج ما تقعون فيه من التهم والرمي بالزنا.

ومن جميل البيان وعظيم مقاصده أنه لم يبين جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ سواء ما يحل من العقوبة، أو نعمة الأحكام التي امتلأت عدلاً وحكمة في معالجة ما يحصل بينكم من القذف بفاحشة الزنا، التي يمتعض ويتأذى بها من رُمِيَّ بها. وفي هذا الإخفاء لجواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ أدى إلى إظهار وإبراز الامتنان من الله تعالى على العباد، وإظهار عظيم الفضل والرحمة لِمَا شرع من هذه الأحكام، والعدول عن نزول العقوبة إلى الأحكام التي تفصل بينكم بالعدل. ففي حذف جواب الشرط، ما جعل جواب الشرط يشتمل على إظهار ومدح الأحكام التي عالج بها معاناتكم فيما يقع بينكم من القذف بالزنا، وشمل أيضاً الوعيد بأنه لولا فضله ورحمته وأنه سبحانه وتعالى تواب حكيم لأحل بالكاذب من المتلاعنين ما دعا به على نفسه. فكان في عدم ذكر جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ حكمة، ومقصد دلالي عظيم. وبلاغة جليلة البيان، مما يدل على الإعجاز العظيم في سياق الآية الكريمة من كل وجه. فالحمد لله تعالى على تشريعه وأحكامه العظيمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ
مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ (١١) لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ
بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ (١٢) لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٣) وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ
أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ
هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ (١٥) وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ
عَظِيمٞ (١٦) يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا

وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فيما تقدم تشنيع القذف بالزنى، وتعظيم جرمه، وبيان حكمه ينتقل السياق الكريم إلى بيان حادثة الإفك، وإعلان براءة الشريفة العفيفة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما قُذِفَت به من الزنا. وتكذيب أصحاب الإفك بما قالوا وافتروا عليها بهتاناً وزورا. مما يبين منزلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عند ربها، ومنزلة زوجها نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فجعلها سبحانه وتعالى آيات تتلى في كتابه إلى أن يرفع الله تعالى القرآن الكريم من الدنيا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

وقد وقعت حادثت الإفك سنة خمس، بعد نزول الحجاب، الذي كان في ذي القعدة، سنة أربع، وكانت قصة الإفك في رجوعهم من غزوة المريسع. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ أحد زوجاته في كل غزوة بحسب القرعة، وكانت القرعة على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في غزوة المريسع. فتقول رضي الله عنها (...فكنت أُحملُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه. فَسِرْنَا حتى إذا فَرِغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقَفَل؛ ودنونا من المدينة قافِلين؛ آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يُرَحِّلوني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه ـ وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْبُلْن ولم يَغشَهن اللحم، إنما يأكلن العُلقةَ من الطعام ـ فلم يستنكر القوم خِفةَ الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثةَ السِّنّ، فبعثوا الجمل فساروا.

ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني. فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسان نائم، فعرفني حين رآني، وكان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما تكلمنا بكلمة واحدة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نُزول. قالت: فهلك من هلك. وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدَّثُ به

عنده فَيُقِرُّه ويستوشيه. وقال عروة أيضا: لم يُسمَّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ومِسطح بن أُثاثة وحَمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصبة)[١]

فقال الله تعالى في هذه الحادثة الجلل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: إن الفئة التي قَدِمَت بالإفك. فورد البيان حاكياً صورة قولهم بأنهم كمن قَدِم به، أي: قَدِمُوا وهم يحملون معهم إفكاً، وهو الكذب الْمُخْتَلَق، الذي لا أصل له البتة. ففي الجملة بيان دقيق لصورة اختلاق الإفك، وبأن الذين جاؤوا به إنما جاؤوا بأبشع الافتراء، فسماه تبارك وتعالى ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ الذي هو أشنع أنواع الكذب وأبشعه، وهو الافتراء المحض. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الإفك: اسم يدل على كذب لا شبهة فيه، فهو بهتان يفجأ الناس. وهو مشتق من الأفك، بفتح الهمزة، وهو قلب الشيء[١] فقلبوا النزاهة والبراءة تهمة، والحق والعفاف باطلاً. كما بينت جملة ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو﴾ أنهم مجموعة كبيرة، وليست بقليلة العدد، فكلمة ﴿جَآءُو﴾ تفيد الكثرة، ويؤكد ذلك بتسميتهم عصبة ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وهم الجماعة الكثيرة التي تجاوزت العشرة. ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم منكم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وليسوا من غيركم. أي: من قومكم الذين يتعايشون معكم. وفي تسميتهم بالعصبة ما يدل ويفيد على التماسك بينهم. فإنه قد حصلت منهم المعاضدة. لأن العصبة: جماعة متعصبة، متعاضدة. مجتمعة في الأمر والشأن. وقد استهل البيان هذا الوصف بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يؤكد ما بعده من البيان. فورد مطلع الآية بإيضاح قوي في دقة ألفاظه، وسياقه العظيم، وتحقيق معناه بأدق ما يكون.

ثم يوضح تبارك وتعالى رحمته بالنبي صلى الله عليه وسلم وبزوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبأبويها، ولمن تألم من الخبر من المؤمنين. بأن جعل سبحانه وتعالى هذا الحدث خيراً للمسلمين، على خلاف الشر الذي فيه ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففيه رفع للحزن عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعن أبويها، وعن الصحابة الذين امتعضوا من هذا الإفك المبين. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ لا تعتقدوا أن هذا الإفك شر لكم ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففيه خير لكم. بأن كشف الله تعالى به حقائق المنافقين وفضحهم، وجَلّا كبيرهم ابن سلول. وكشف عن حال المؤمنين المتورعين، وكشف ضعفاء الإيمان، وما أعده من عظيم الأجر للذين نالهم هذا الأذى العظيم. ففي تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رفعة لشأنها من الله تعالى، ومنزلة رفيعة نالتها، بأن آيات الله تعالى في شأنها تتلى في كتاب

---

[١] البخاري (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

[١] ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٦/٨)

الله العزيز عنها. فلولا مقالة أهل الإفك لما كان ذلك الخير. مما يبين أن ظاهر الشيء قد يحمل ضده، فقد يكون وراء الشر خير عظيم، فيكون الشر سبب للخير. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه قد أجمع العلماء رحمهم الله تعالى قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن[١] لأن من ضاد القرآن الكريم فقد كفر به، ومن كفر به فقد كفر بالحق.

ومن جميل البيان الكريم ودقائقه أن سمى نظرتهم لِمَا حملوه من النتائج حسبان ﴿تَحۡسَبُوهُ﴾ والحسبان: أن يكون هناك نقيضان، فيحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر بباله مضمون النقيض الآخر، فيحسبه ويعقد على أحدهم دون أن يأتي في ذهنه النقيض الآخر، وهي الحالة المعاكسة والمضادة لما يحمله من معنى. فتصورتم وجه الشر وأذاه، ولكن منحه الله تعالى وجهاً آخر، وهو الخير، الذي تتعدد مزاياه. مما يعلم المؤمن أهمية توسعة دائرة التفكير لديه، وأن ينظر للأمور من عدة أوجه وزوايا ووجهات مختلفة، حتى يستوفي عوائده وفوائده.

ثم يبين تبارك وتعالى معاقبته ومجازاته لجميع من خاض في هذا الإفك المبين بعدله الذي يمنح كل واحد منهم بقدر ما يستحق مما ارتكبه من الإثم ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ فلكل واحد خاض في عِرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما يستحق ويستوجب من الإثم، أي: بما يقابل مقدار ما ارتكبه من إثم القذف. فجملة ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ دليل مفاده تنوع أعمالهم ودرجات أقولهم في حادثة الإفك، وما خاضوا به في شأنها رضي الله عنها. مما يفيد أنهم سيعاقبون بالعقاب المستحق لهم، كل بمقدار ما خاض فيه. وهذا من عظيم عدل الله تعالى.

ثم خص سبحانه وتعالى منشأ الإفك، وهو رأس المنافقين: عبد الله بن أبي بن سلول ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فإنه بيان لسوء عاقبته. فإن له من الله تعالى عذاب، وأن نوع هذا العذاب عظيم، فليس مثل غيره ممن خاضوا فيه، كما أثبت قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أن هذا الرجل ضمن رجال آخرون، فكلمة ﴿مِنۡهُمۡ﴾ تدل على أنه فرد واحد من العصبة، وأنه كان فيهم المتزعم لهذا الأمر، ﴿تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ فمن عدل الله تعالى أن يكون له أعظم العذاب ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وفي هذا دليل على عدل الله تعالى فيمن اشتركوا في معصية واحدة، فإن لكل واحد منهم من الإثم ما يناسب جُرمه. قال

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٣)

السعدي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾: أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أُبي بن سلول، لعنه الله ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار[١] فقد كان من أسلوبه أنه يجر المتكلم في الإفك إلى التوسع فيه، ويُقره، ويؤيده، ويؤكده. حتى يعم انتشاره، ويصدق الناس الخبر، فيتأذى النبي صلى الله عليه وسلم في أحب الناس إليه، وتتأذى أم المؤمنين به أشد الأذى. وهي الشريفة العفيفة، والفقيهة، والتي هي أحب نساء النبي إليه صلى الله عليه وسلم، كما أنها بنت أحب الناس من الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا إنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المنهج الصحيح الذي كان يجب على المؤمنين أن يعملوا به عندما سمعوا بحادثة الإفك ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ فالأولى أن يُحسن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم الخير، بأن يقيسوا الأمر على أنفسهم، فإن كانوا يستبعدون ذلك الأمر عن أنفسهم، ففي حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أولى وأبعد. وكذلك في حق صفوان رضي الله عنه. الذي قالت عنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل، ليقول: سبحان الله، فو الذي نفسي بيده ما كشفت من كنف أنثى قط. قالت: ثم قُتل بعد ذلك في سبيل الله[٢] فكان الأولى أن يردوا على ذلك الإفك بما قال الله تعالى عما يجب أن يقولوه، وهو ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ فالأولى أن يقولوا: هذا كذب وبهت على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو ظاهر واضح كذبه وبهتانه. فقد أفاد الوصف له بأنه ﴿ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ الواضح التام، والبليغ في ظهور كذبه وبهتانه، فلا لبس ولا شبهة فيه. فهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، العفيفة المصونة عن ذلك البهتان. فالأصل أن يبرئ الإنسان أخاه المؤمن. ولا يُصَدِّق القول فيه.

وقد ابتدأ الله تبارك توجيهه للمؤمن بما يحضضهم ويدفعهم لِمَا كان يجب عليهم ﴿ لَّوْلَآ ﴾ والذي مفاده التحضيض على الأولى مما كان يجب أن يقولوه دفاعاً عن الحق، من خلال دفع الباطل عنه، وعدم تصديقه. ومن وجه آخر هو عتاب وتأديب مؤكد من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات، وأفادت كلمة ﴿ لَّوْلَآ ﴾ معنى: هلا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، بدلاً من الظن السيء. فهي تفيد المبالغة في معاتبتهم، والتقريع، والمبالغة في الزجر والتوبيخ.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٣٨٦)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٣/١٢٣-١٢٦) برقم (٤١٤١)

وفي كلمة ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ جمعت أهل الإيمان في شأن واحد، بما يؤكد أن نفوس بعضهم لبعض كأنها نفس واحدة، فيعامل جميع المؤمنين وكأنها نفسه هو، فيحلها محل ذاته وشأنه، وكأن المؤمنين نفس واحدة عند بعضهم البعض، بل وسماهم بصفة الإيمان ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ ليدل على أنه لا يليق بكم أيها المؤمنون والمؤمنات أن تصدقوا ذلك؛ أفلا كذبتموه وردتموه، فلا يليق بالمؤمنين والمؤمنات إلا الظن الحسن في بعضهم البعض. فمن دقة لفظة ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أن جعلتهم وكأنهم يشكلون نفساً واحدة؛ تمثل الأمة فيها. فكيف بزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، العفيفة المصونة عن ذلك البهتان. وورد التوجيه الكريم بتعميم السماع ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي: جميع من خاض فيه أو صدقه، أوشك فيه، ثم خص المؤمنين والمؤمنات الذين حصل عندهم التصديق بما سمعوا ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ فخص الذين صَدَّق ظنهم ما سمعوا من الإفك، إذ كان الأولى أن يظنوا بأنفسهم خير الظن، باستبعاد التهمة. وفي هذا كمال التوجيه والمعالجة، بكمال الأسلوب، وأدقه لفظاً وغاية.

ومن دقائق السياق: فإنه لإثارة الاهتمام بما يجب، فقد تم حذف ما قيل من الإفك والبهتان، والتركيز على الذي كان يجب أن يقولوه، لإشغال الذهن بما يجب عن الذي حصل، مع تركيز الذهن عليه، وهو أسلوب بياني غاية في قوة الخطاب ودقائق بنائه. مما يفيد تربوياً أهمية اشغال النفس والذهن بالصواب عن الخطأ أثناء النصح والتوجيه والتربية. وأنه عند الانتقال إلى النصح لا تُشغل ذهن ونفس المتلقي بما حدث، بل اشغله بما يجب.

وتعتبر هذه الآية الكريمة قاعدة أخلاقية كريمة في التعامل بين المؤمنين. بأن الأصل الخير في مسلك المؤمنين والمؤمنات مع بعضهم البعض، ولا يخرجوا من الأصل إلا بدليل وبرهان ثابت. فإن من مميزات هذه القاعدة أن يتجنبوا بها الإثم، وبقاء الصفاء والنقاء بينهم على أصله، وما سيتبع ذلك الصفاء من التواد والتراحم. بعكس الشك إذا كان هو الأصل، أو هو الراجح، فإن الشكوك هي التي تسود، والتي هي مداخل شياطين الإنس والجن، فتهدم العلاقات وتدمرها من غير بينة، وسواء على مستوى الزوجين، أو نطاق الأسرة، أو بين الأقارب، أو زملاء المهنة والعمل، أو الجيران، أو غير ذلك من العلاقات الاجتماعية. فنحمد الله تعالى على هذه القاعدة العظيمة التي يجب أن تنغرس في النفوس.

ثم يأتي بيان ما كان يجب أن يعتمدوا عليه، وهو الدليل، بحيث لا يقولوا ذلك البهتان إلا بدليل. فمن أعجزه الدليل أثبت على نفسه الإفك والافتراء ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ فهلا جاء القاذفون بأربعة شهود على ما زعموا من الافتراء ﴿ لَّوْلَا

﴿ جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ وفي هذا إعادتهم إلى ما يفقدونه من الحق والدليل، وأن اعتمادهم كان قائماً على التخمين الذي مبناه على الظن السيء الخبيث، والذي لا يليق بجناب المؤمنين عموماً، فكيف وهو متعلق بالطاهرة الشريفة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والصحابي الجليل صفوان رضي الله عنه. فإنه لا أحد منهم كان مع صفوان في الموقع، عند بحثه عما يمكن أن يكونوا قد نسوه، ولا كان أحد منهم قد رأى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك الموقع بعد ذهاب الجيش، فكيف يحكمون عليها بالبهتان وهم غياب.

ثم يحكم الله تعالى على صنيعهم بما يستحقون ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ فإن لم يأتوا بالشهود على صحة ما قالوا؛ فإن أولئك الخائضين في الإفك إذاً هم في حكم الله تعالى الكاذبون فيما جاؤوا به من البهتان. وجملة ﴿ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ تفيد التخصيص، بأنهم هم الذين يمثلون الكذب حقيقة. وأنهم هم المتصفون بالكذب في حكم الله ربهم سبحانه وتعالى عليهم. وهذا من عدل الله تعالى، إذ أجرى الحكم وفق حال الناس، ووفق شرعه، بتعليق الحكم بالشهود، وهو أعلم بدقائق كل شيء، من غير أن يأتوا بالشهود. فسبحان الله العزيز الحكيم الحميد.

ثم يذكر سبحانه وتعالى عظيم امتنانه عليهم بالرغم من عظيم ما خاضوا فيه، بما يبين ويُظهر رحمته سبحانه وتعالى، وعظيم حكمته ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فيا من خضتم في شأن أم المؤمنين بإشاعتكم الكذب عليها، والتهمة العظيمة، فإنه لو لم يتفضل ربكم عليكم بفضله ورحمته لكم في الدنيا، وكذلك في الآخرة، بقبول توبتكم مما كان منكم لباشركم فيما أكثرتم القول فيه ما تستحقون من العذاب. أي: لباشركم العذاب مباشرة، ولكن ربكم عَزَّ وجل قد تعامل معكم بفضله تبارك وتعالى ورحمته. وهذا تهديد بليغ، وامتنان عظيم، بما يدل على رحمة الله تعالى، وأنه لو تعامل مع عباده بما يستحقون، لعجل لهم العقوبة، ولكنه رحيم حليم سبحانه وتعالى. وفي هذا اطماع للمؤمنين في رحمة ربهم، بسرعة العودة إليه إذا حصلت منهم المعصية والزلل. وورد الخطاب للمؤمنين الذين خاضوا في الإفك، وأما من خاض من المنافقين فيه، فإنه غير مخاطب بذلك، لأنه لا يستحق ذلك، فالمنافق يبطن الكفر، ويظهر الإسلام.

وقد ورد البيان بحرف الامتناع ﴿ وَلَوۡلَا ﴾ امتناع إيقاع العذاب من الله تعالى بكم لتفضله عليكم ورحمته بكم ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ فإن امتنع معاقبتكم بالعذاب من ربكم عليكم تفضلاً منه، وهو زيادة خير منه خصكم به. والفضل هو إعطاء ما لا يستحق الْمُعْطَى من الخير، أو العفو عنه. فكل عطاء لا يلزم ولا يجب فإنه فضل. كما امتن الله تعالى عليهم زيادة عن ذلك الفضل بأن تولتهم رحمته، فجمع مع التفضل الرحمة

سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ والرحمة من الله تعالى: الإنعام والإفضال والإحسان، ومنها امتنانه عليكم بمنع العذاب عنكم في شأن الإفك ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فمنع العذاب عنكم بهذا الخصوص في الدنيا، وكذلك في الآخرة لمن تاب واستغفر ورجع عن خوضه في الإفك. وقد أبان سبحانه وتعالى شدة عذابه لهم فيما لو أصابهم به، وذلك بثلاثة أوصاف: الأول ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ والمس يفيد الملامسة والملاصقة لهذا العذاب بكم، والمعبر عن قوته وأثره عليكم. والوصف الثاني ﴿ عَذَابٌ ﴾ وهو الإيلام الشديد.

والوصف الثالث: صفة العذاب بأنه ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أي: الذي تناهت قوته، وبالغت شدته. ولكنه مع ذلك عفا عما تستحقونه بالرغم من أن الذي قالوه من الإفك موصوف من الله تعالى بكثرة الترويج والحديث فيه، لأن الإفاضة تفيد الكثرة والمبالغة ﴿ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ والإفاضة تدل على المبالغة، بخروجه عنهم إلى غيرهم، فإن تجاوز الحد فيها هو مبلغه. حتى بلغ من كثرته أن شاع وانتشر العلم به بين الناس، فعلم الناس به وتناقلوه بينهم، وأصبح متداولاً، فقد خرج عنكم إلى غيركم باتساع مبالغ فيه. فورد البيان من الله تعالى مستوفياً لدقائق التوضيح، الذي يبين دقة علم الله تعالى به، أكثر من وصف غيره له. فلا دقة أعمق من دقة الله تعالى، ولا علم أعمق وأدق من علم الله عَزَّ وجل. ولا بيان أعظم من بيان ربنا جَلَّ جلاله. وفي هذا بيان لعظيم جرم هذا الإثم، ولا سيما في شأن عائشة رضي الله عنها، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك في رجل عفيف يغادر الحياة في سبيل الله تعالى. مما يدل على عظيم منزلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عند ربها عَزَّ وجل، بأن أنزل في تبرئتها قرآن يُتلى في الدنيا إلى يوم القيامة.

ثم يوضح ويبين سبحانه وتعالى تجريم هذا الفعل، بتشنيع طريقة تناقله ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ حين يرويه بعضكم عن بعض ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ فتتلقون الإفك وتتقبلونه إلى درجة التناقل في الرواية، فيرويه بعضكم عن بعض. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يقال: تلقيت هذا الكلام عن فلان، بمعنى أخذته منه، وقيل ذلك: لأن الرجل منهم فيما ذكر، يلقى آخر، فيقول: أوما بلغك كذا وكذا عن عائشة؟ ليشيع عليها بذلك الفاحشة[1] وفي تعيين القول باللسان، تأكيد للتلفظ والنطق به، وكذلك تعيين وكشف مخاطر اللسان. ودقة في تحرير واقع الحال، ليتصوره الْمُخَاطَب وكأنه يعيش أحداثه.

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١٥/١٧)

ثم يؤكده سبحانه وتعالى شناعة قولهم بصورة وشكل آخر ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ فكل قول باللسان يكون عن طريق الأفواه، ولكن ليؤكد المبالغة في تناقله من غير تحرز، ولا تمنع، وليفيد أنه قول بالأفواه لا واقع له في الحقيقة، فهو مجرد قول بالأفواه، ونطق باللسان. ثم ارتبط البيان بما بعده من دقائق الوصف والبيان ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فتقولون بألسنتكم ما يخرج كلاماً ووصفاً من أفواهكم من غير أن يكون له واقع في الحقيقة، فلا يعدو أنه صورة وهم وشك وافتراء في مخيلة المفترين. فهو من غير علم لكم به. بما يفيد أنه من غير وجه حق. فهو قول مناقض ومنافي للحق وللحقيقة. فقد انتفى الحق منه. بل هو عار عن الصحة التي يمثلها العلم الجازم المؤكد.

ثم يكشف الله تعالى عما كان في اعتقادهم وهم يتناقلونه بينهم ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ تسيرون به، وتتناقلونه بينكم على أنه كلام هين ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ ففي تقيمكم له أنه أمر بسيط في نقله وإشاعته، استخفافاً بالطعن في أم المؤمنين وصفوان رضي الله عنهما ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ بينما هو في حكم الله تعالى، وفيما يمقته الله تعالى شأن عظيم، لأنه يمس الإنسان في عرضه، وعائشة عِرض رسولكم، وصفوان وعائشة يتأذون بذلك أشد الأذى، وأنتم مستهينين به في حسبانكم الخاطئ . وفي هذا إبطال للحسبان، وتجريم له. وتحذير وزجر من الاستخفاف بالأعراض.

ثم يعاود سبحانه وتعالى إلى تعليم المؤمنين والمؤمنات ما كان يجب أن يكون منهم حين سمعوا ذلك الإفك من قائله المنافق عبد الله بن سلول، على سبيل التأديب والتقريع ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ هلا حين سمعتم ذلك الإفك ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ فحين سمعتم ذلك كان الأجدر أن يكون قولكم: لا يحل لنا أن نتكلم بهذا الإفك، فلا ينبغي لنا أن نتفوه وننطق بهذا الكلام، بل نصون ألسنتنا ومنطقنا وكلامنا عنه، فلا نذكره. وقلتم كذلك ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ ننزهك يا ربنا وخالقنا من أن يقع هذا من زوج نبيك ورسولك صلى الله عليه وسلم، وننزهك يا ربنا من أن يكون منا هذا القول عن زوجة نبيك ورسولك صلى الله عليه وسلم. وتنزيهاً لك يا رب وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء من الأمر الفظيع المدهش. وكذلك يفيد التعجب من هذا القول المنكر الذي لا يمكن أن يحدث.

وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره: أنه يحتمل التنزيه والتعجب. ونقل أن سعد بن معاذ رضي الله عنه، لما سمع ذلك، قال: سبحانك هذا بهتان عظيم، ومثله أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه[١] ﴿ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ فإن هذا الكلام كذب وافتراء عظيم. لأن البهتان هو القول والوصف والخبر الكاذب الذي يدهش ويُحَيِّر، فيبهت سامعه لفظاعته، بأن يجعله يندهش لفظاعته، ويتحير منه، فلا يدري كيف يتعامل معه لشدة قبوله والقناعة به وتصديقه. بل وتؤكدون فظاعته بتعظيم هذا الافتراء. ففي تعظيمه ما يجعل النفس تنفر منه، وتنفر من أن تستسيغه، فضلاً عن أن تتفوه به، إجلالاً وإنكاراً بأن يحدث من زوجة نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ذلك. وفي هذا مزيد من تعليم الأمة كيف تتعامل مع ما يقال في ذواتهم. وكيف ينزهون ألسنتهم وساحتهم، وكذلك كيف ينزهون غيرهم من كل مفسدة، وأن لا يظنوا ببعضهم إلا خيراً، وهو الأصل الذي يكون عليه المؤمن. وأن لا ينطلقوا بالإشاعات ونشرها. وأن حقوق المؤمن عظيمة عند الله تعالى، وعند أصحابها.

ثم يحذر ويتوعد سبحانه وتعالى من أن يعود من خاض في حادثة الإفك إلى مثله، وكذلك جميع المؤمنين والمؤمنات من أن يحصل منهم مثل ما حصل من غيرهم الذين خاضوا في الإفك ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ينهاكم ويذكركم ربكم وينصحكم أن تعودوا لمثله ونظيره من رمي المؤمنين والمؤمنات بالفاحشة ﴿ أَبَدًا ﴾ قطعاً، أي: امتثالاً كاملاً. ثم يبين الله تبارك وتعالى علامة صدق الايمان ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين في إيمانكم، وتتعففون عن مثل ذلك فلا يتكررنكم. فإن حقيقة إيمانكم تتأكد بعدم تكرار ذلك منكم أيها المؤمنون بعد وعظ ربكم لكم، وبما علمتم من نهيه وزجره لكم. ويقتضي هذا النهي التحريم. وقد تضمن قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ الحث والترغيب والتهييج للنفوس على الامتثال بدلالة الإيمان، لأنه المحك والفيصل الذي يُظهر حقيقة الإيمان، بما يغرس في عباده الحرص على الطاعة والاستجابة. مما يبين قوة موعظة الله تعالى لعباده، وقوة أسلوبها وتأثيرها على النفس المؤمنة.

وقد أظهر الله تعالى قيمة ومنزلة ما تفضل به من الأحكام والوعظ والتوجيه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يوضح لكم ربكم آيات كتابه القرآن العظيم، وما تضمنته من الأحكام والتشريع والآداب والأخلاق وغيرها من التوجيهات الواضحة الجلية ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن ربكم عليم

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٤٩/٥)

بكم، وعليم بما يصلحكم، وكذلك ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في شرعه وتشريعه ووعظه وتدبيره، وأمره ونهيه، فيضع كل شيء في موضعه، بما لا يدع مجالاً للأخذ بغيره، أو أن يستصعبه أحد، أو يتعذر عليه تطبيقه. مما يستوجب عليكم أيها المؤمنون العمل بأحكامه الشرعية وتطبيقها في حياتكم. وفي هذا الإظهار لمنزلة شرعه ووعظه سبحانه وتعالى ما يدفع النفوس نحو طاعته، وامتثال ما شرع، وأن لا يعودوا لمثل ما نهاهم عنه أبداً. واستشعار لطفه في أحكامه، وعلمه بنفوسهم، أكثر من علمهم بأنفسهم.

بعد أن حَذَّر اللهُ تعالى المؤمنين والمؤمنات من العودة في قادم أيامهم إلى مثل ما خاضوا فيه من الأفك ينتقل البيان الكريم إلى وعيد وتهديد الله عَزَّ وجل لمن أراد أن ينشر وينتشر السوء في المؤمنين، من خلال شيوع الفاحشة بينهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ إن الذين تميل قلوبهم حباً لنشر الفاحشة في أوساط المؤمنين لهم عذاب أليم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾ فمجرد المحبة، التي تكشف ميل النفس واغتباطها بذيوع وظهور الفاحشة، ووجود النية الفاسدة، فإن لهم عذاب أليم، فكيف إذاً لو حصل الفعل بالنشر، فمجرد المحبة لذلك تستوجب العقوبة. وفي هذا تربية وقائية من أن يسري الفعل بعد المحبة، ودرأ مخاطر الرغبة المتجلية في المحبة من ﴿ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ ﴾ بأن تنتشر، ويذيع أمرها شيوعاً وانتشاراً، وتصبح سائدة التطبيق والممارسة بين المؤمنين. وتجمع دلالة كلمة ﴿ ٱلۡفَٰحِشَةُ ﴾ كل فعل قبيح، قد تزايد قبحه من أنواع القول والفعل. ووردت المحبة بصيغة المضارع ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ التي تدل على استمرار وجود الرغبة في شيوع الفاحشة، بدافع المحبة لها، والتي لا تريد أن تتوقف وتنطفي عن الوصول إلى ما تحب النفس وتميل إليه، من أن تتفرق وتنتشر الفاحشة في الذين آمنوا. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: لأن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين، ومن شأن تلك الطوية ألا يلبث صاحبها إلا يسيراً حتى يصدر عنه ما هو محب له، أو يُسَرُّ بصدور ذلك من غيره. فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه. وجيء بصيغة الفعل المضارع ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ للدلالة على الاستمرار[١] فهي محبة مستمرة لانتشار الرذيلة في المجتمع.

وقد أكد الله تعالى ذلك بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من البيان. ولم يحصر ويقصر سبحانه وتعالى تلك المحبة في شيوع الفاحشة في المؤمنين فقط، لتشمل وتستوعب كل المحبين لها، من المؤمنين والمنافقين وجميع الناس، وتكشف هذه الحماية من الله تعالى للمؤمنين عن قدر محبته عَزَّ وجل للمؤمنين،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣٧/٨)

وعنايته بهم، وبحفظهم، وبجميع أحوالهم وشؤونهم. وكذلك تبين مقت الله تعالى للفاحشة، وبغضه لها، ولمحبيها وفاعليها. وفي ذلك تربية وقائية بحجب ومنع انتشار الفاحشة بين المجتمع المؤمن. كما يفيد أهمية الردع لجنس الإنسان، مع التعليم والإنذار، والإعلام بالعقوبات وإعلانها ونشرها.

ثم يوضح سبحانه وتعالى وينذر ببيان ما لهم من العذاب في الدنيا والآخرة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ ففي الدنيا لهم تطبيق حد القذف، وهو عذاب موجع جسدياً ونفسياً. وفي الآخرة عذاب النار، لمن لم يتب توبة نصوحاً من ذنبه. لأن في الآخرة كشف لنوع النوايا، وقوتها، وما سار منها على سبيل التزيين والاستظهار والمدح لها. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والله تعالى يعلم بكل ما دار من أمور الإفك الذي لم تعلمونه أنتم، وما في ذلك من المفاسد، وما تجلبه من العداوة، وما تجلبه من الشرور. ولا تعلمون عن تفاصيل ذلك. فهناك النوايا، والبواعث، التي تغيب عن كل مخلوق، ولا تغيب عن الله تعالى، والتي يجهلها الإنسان؛ ولكن يعلمها عالم الغيب والشهادة، ولذلك أوضح لكم ما تجهلون، وعلمكم مالا تعلمون سبحانه وتعالى.

مما يفيد أن العزم على إشاعة الفواحش منكر، وأن محبة شيوع الفواحش بين المؤمنين ذنب وإثم عظيم، وأنها إرادة قلبية خبيثة. وأن على المؤمن أن يمارس ويطبق على إخوانه ما يحبه لنفسه، ويحرص على ذلك كل الحرص، ويربي ويُعَوِّد نفسه على الخير واتقاء الشر والفساد. وهذا يؤدي بالمجتمع المؤمن إلى السلامة، ويحقق بينهم الستر، ووأد الفساد وبواعثه، وما ينتشر من الأكاذيب والافتراءات وإذاعتها.

لَمَّا بين سبحانه وتعالى في تشريعه وأحكامه ومواعظه شأن الذين تناقلوا الإفك والافتراء، يختتم تبارك وتعالى وعظه وحكمه بما يبين امتنانه وفضله ورحمته التي عامل بها المؤمنين، إذ لم يعاملهم بما يستحقون، بل برحمته ورأفته بهم. وقد كرر عَزَّ وجل الامتنان بترك المعاجلة بالعقاب مرتين سابقتين، وهذه الثالثة، وفي هذا التكرار مع حذف جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ مبالغة جليلة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلولا ما تفضل الله تعالى به عليكم من الفضل والرحمة لمسكم العذاب. وقد غَيَّب سبحانه وتعالى ذكر العذاب ولم يذكره في الآية، امتناناً عليهم منه عَزَّ وجل. والفضل زيادة في العطاء والعناية، فلولا فضله مع رحمته لأهلككم بسبب ما أفضتم فيه من شأن الإفك. ليدل على فضاعته. ولكن تداركم بفضله ورحمته.

وقد اجتمع في هذا الامتنان من الله تعالى عموم الفضل، وكذلك عموم الرحمة، حيث نوه الله تعالى بها ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ وبالرغم من أن الرحمة داخلة في فضل الله تعالى، إلا أن الله تبارك وتعالى أفردها للتنويه بها، وبعظمتها من بين جميع مفردات أنواع الفضل، وهي من باب ذكر الخاص

بعد العام، للتنبيه وللأهمية وللمزية. ولولا فضل الله تعالى ولطفه. المتوافق مع صفته سبحانه وتعالى بأنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لأهلككم بسبب ما كان منكم.

وذكر سبحانه وتعالى الرأفة زيادة في الرحمة، وكرر الرحمة مرتين ومؤكدة لها حيث ذكر سبحانه وتعالى صفة الرأفة والرحمة التي اتصف بها عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ فهذه تبين أنه لم يُنَزِّل عليكم ما تستحقون من العذاب بسبب أنه تبارك وتعالى رؤوف رحيم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فعاملكم بما هو عليه عَزَّ وجل من الرحمة. وأما الثانية: التي هي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهي تقرير بأنه متصف بالرأفة والرحمة، والتي بها زاد فضله عليكم ورحمته، فلم يعذبكم.

وصفة الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[١] فكيف وقد اجتمعت مع بعضها البعض ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي كيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٢] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٤٠)

(٢) البخاري (٤/٩١) برقم (٥٩٩٩)

وقد ورد بيان رحمته بحرف الامتناع ﴿ وَلَوْلَا ﴾ وهو امتناع إيقاع العذاب من الله تعالى بكم لتفضله عليكم ورحمته بكم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فامتنع معاقبتكم بالعذاب من ربكم عليكم تفضلاً منه، وهو زيادة خير منه خصكم به. والفضل هو إعطاء ما لا يستحق المعطى من الخير، أو العفو عنه. فكل عطاء وعفو لا يلزم ويجب فهو فضل ﴿ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ والرحمة من الله تعالى: الإنعام والإفضال والإحسان، ومنها امتنانه عليكم بأن منع العذاب عنكم في شأن الإفك. وقد حذف جواب ﴿ وَلَوْلَا ﴾ وهو لعاجلكم بالعقوبة بما تستحقون فيما دار بينكم من الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ويفيد حذف الجواب إظهار قوة الامتنان من الله العزيز الحكيم بالعدول عن ذكر جواب ﴿ وَلَوْلَا ﴾ مما يبين أن الله تعالى يعامل عباده المؤمنين بفضله ورحمته، ولو عامل الناس بما يستحقون لهلكوا بما يقع منهم مما يُغضبه سبحانه وتعالى بما يصدر منهم من المعاصي بجميع أنواعها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد معالجة قضية الإفك التي كانت بخصوص أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يقرر تبارك وتعالى لعباده ما يعالج به عموم ذنوبهم وسلوكهم، مبتدأ ذلك بالنداء للمؤمنين إلى ما يلزم الانتباه إليه، ويعظهم به ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

﴿عَلِيمٌ﴾ بدأ تبارك وتعالى توجيه للمؤمنين بالمدح المسبوق بالنداء، حيث ناداهم بخصيصة الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا من آمنتم وصدقتم بما جاءكم عن ربكم تبارك وتعالى ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ إياكم أن تتبعوا مسلك الشيطان، فاحذروه، فإنه يأمركم بما يهلككم. فأفاد النهي: البيان مع التحذير والانتباه. وباقتران النهي بما قبله من المدح فإنه أفاد أنه لا يليق بالممدوح بالإيمان، والموصوف به أن يتابع الشيطان في خطواته المتتالية، حتى يُوقعه في الفحشاء والمنكر المنافية للإيمان. فلا تجعلوا الشيطان يغريكم بخطوات التتابع المتدرج. وهو أسلوب تنبيه وحث بخصيصة الثناء، مما يعطي تربوياً وتوجيهياً أهمية أسلوب التربية والتوجيه من خلال إثارة خصائص المدح والثناء في نفوس الْمَنْصُوحِين. كما استخدم سبحانه وتعالى أسلوب الأمر الذي يقتضي الوجوب﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾ أي يجب الامتناع عن اتباع طرائق الشيطان، التي هي خطواته.

وبدأ التوجيه الكريم بأسلوب النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ الذي يفيد الانتباه والاهتمام لمضمون ما نُودِي له، وأهمية ما يدعوكم ويرشدكم إليه، لأن نداء العظيم الجليل إنما يكون لأمر عظيم، ومثله النهي، فإذا نهى العظيم الجليل عن أمر فإنما ينهى عن أمر شره وبيل. وفي تعيين سُبل الشيطان وطرائقه بالخطوات، ما يحفز الانتباه لها، واستحضار شأنها وأسلوبها، فإن لفظ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ يفيد التعدد والتتابع والتدرج، بأن الشيطان يعمل وفق خطوات متتابعة ومتدرجة، والخطوات تفيد الكثرة، لأنه جمع خطوة، مما يدل على التتابع الكثير والمتعاقب؛ لإغواء المؤمنين بهذا التدرج المتكاثر والمتتابع. فإن تابع الإنسان الشيطان في خطوته الأولى سحبه وجره إلى ما بعدها من خطوات، وباستدراج دقيق، حتى يُبعده شيئاً فشيئاً عن مصالحه وفوزه وفلاحه ونجاته، فيوقعه في الفحش والمنكر.

ثم يكشف تبارك وتعالى الأثر الخبيث الذي يقع فيه من تابع خطوات الشيطان ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فمن يطاوع ويتابع خطوات الشيطان يستدرجه إلى الوقوع في الفحشاء والمنكر ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فإنه يزين الفحشاء والمنكر لمن يتابع خطواته. بل من دقائق التحذير والبيان ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فإن الشيطان ينتقل ويتحول بعد التمكن من عملية التزيين إلى السيطرة على من طاوعه، لأن فعل الأمر ﴿يَأۡمُرُ﴾ لا يكون إلا ممن يرى أن له سلطة على من يأمره، وإذا أمر فإنما أمره كائن في أخبث ما يكون ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فإنه يأمر بالفحشاء، التي هي كل ما نهى الشرع عنه من القبائح. كما أن الفحشاء هي: ما تناهى وأفرط قبحها، كالقتل، وشرب الخمر، والزنا، والقذف. وجميع ما تستفحشه وتنفر منه الطبائع السليمة، والعقول المستقيمة، ويأمر الشيطان كذلك

بالمنكر ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ والمنكر هو: ضد المعروف، وهو ما أنكره الشرع. فلا يرضاه الله سبحانه وتعالى من الأقوال والأفعال، وتنكره النفوس، وتنفر منه، ولا ترضاه. فإن النفوس التي على فطرتها تنكر ما ينكره الله تعالى ولا يرضاه.

ثم يذكر سبحانه وتعالى عظيم امتنانه على عباده بفضله ورحمته عليهم ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ ﴾ فلولا إنعام ربكم عليكم بما تفضل به من الفضل والرحمة ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ وهو جواب ﴿ وَلَوۡلَا ﴾ أي: لولا فضله ورحمته بكم عَزَّ وجل ما اهتدى ولا صلح ولا عرف الرشد أحد منكم، ولا طهر أحد من دنس الذنوب والخطايا طيلة حياته ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ ﴾ ولكن الله تعالى بفضله ورحمته يطهر من يشاء، فلا تحسبوه منكم أنتم، بل بفضله ورحمته، فيعينكم ويغفر لكم، ويتوب عليكم، ويوفقك، ويسددكم. مما يستوجب على المؤمن سؤال الله تعالى، والالتجاء إليه، فلا يكل شأنه إلى حوله وقدرته، فإنها سرعان ما تضعف أمام المغريات ما لم يكن لها نصر وعون وقوة من الله تعالى. وهذا يتناسب مع دلالة: لا حول ولا قوة إلا بالله. ولذلك هي كنز من كنوز الجنة، كما ورد في الحديث.

ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ فإن الله سميع لما تقولون بأفواهكم، وتنطقونه بألسنتكم، وعليم به، وبأفعالكم، وضمائركم وإخلاصكم، ونواياكم، فلا يغيب عن علمه شيء منكم. ليفيد الحث على الإخلاص، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن. وترغيب لعباده التائبين في رحمته، وعدم تأييسهم مما حصل منهم. وكذلك يفيد الحذر والانتباه، وأهمية استشعار ذلك في قلوبكم كل لحظة من حياتكم، حتى تكون خطواتكم وفق مراد الله تعالى، وليس وفق خطوات الشيطان. وفيه بيان بأن منهج الله تعالى لا يقوم على تأييس من أذنب إذا تاب ورجع إلى ربه، فإن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً. فالذي على العبد هو التوبة، والاستقامة. ولا ييأس من روح الله تعالى.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى تثبيت أهل الفضل على ما هم عليه من فضل العطاء، بأن يستمروا على ما اعتادوا عليه من السخاء، بالمواظبة على ما كان منهم من العطاء ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ هذه الآية الكريمة نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين حلف أن لا يعطي مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من العون والمساعدة، بعد أن شارك بالكلام في حادثة الإفك ونقله. فلما أنزل الله تعالى براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وطابت النفوس المؤمنة، واستقرت، وتاب

الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى، وله الفضل والمنة، أن يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق[١] وفي نزول هذه الآيات الكريمة دليل على لطف الله تعالى ورحمته، ومنها رحمته بالمذنب إذا تاب، ولطفه في عطف القلوب على بعضها، وما رتبه عليها من المكافأة المجزية من المغفرة. وأن المجتمع المؤمن يتعامل مع التائب وكأنه لم يحصل منه ما حصل من المعصية، ويطويها في طي النسيان، ويتعامل مع غيره بواقعه الجديد. فإن منهج الإسلام قائم على العدل والتآلف والتواد.

وقد ورد التوجيه بصيغة العموم ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ فيكون توجيهاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ولجميع المؤمنين. لتكون قاعدة راسخة في المجتمع إلى يوم الدين. ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي: فمن اتصف بالفضل والسعة فلا يحلف باليمين ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ فيمنع نفسه من الخير، ويمنع عن غيره سد حاجته. والمقصود بأهل الفضل هم: أهل الطول والإحسان بما ينفقون به على غيرهم، وسماهم سبحانه وتعالى ﴿ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ ﴾ لأن الفضل يفيد أنهم من أهل اليسار، الذي زاد الخير عندهم عن حاجتهم، وهو الزيادة في كل باب، لأنه ضد النقص. والصفة الثانية مؤكدة لهم الأولى وزياد، وهي: ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أي: الْجِدَة والرحابة من الغنى، فهي معبرة عن تجاوز الفضل إلى درجة الغنى، وهي تعني وتفيد كمال الوفرة. وهذا يبين أن هناك من الصحابة من كان غنياً، ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين. فإن هؤلاء الموصوفون بهذه الصفة يلزمهم ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فلا تحلفوا بأن لا تعطوا قرابتكم، فتقطعوهم ولا تصلوهم بتلك اليمين،

وبدأ التوجيه الكريم بالقرابة ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وهم الذين تربطهم قرابة النسب، والمصاهرة، وعلى رأسهم الوالدين، والأصول والفروع. مما يدل على أنهم مُقَدَّمُون على غيرهم في العناية والعطاء، للمحتاج منهم، وكذلك ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ الذين ليس عندهم ما يكفيهم، والذين تظهر عليهم المسكنة في حياتهم، نتيجة الفقر. فهذا نوع انفرد عن القرابة. وكذلك صنف ثالث: يلزم أن لا يمسك أهل الفضل والسعة عنهم البر والعطاء، وهم ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم المسلمون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم في

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٨٦)

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ليدل على الترفق بهذه الأصناف، والعطف عليها بالصلة مما تفضل الله تعالى به عليكم، يا أولي الفضل والسعة.

ثم يوجه تبارك وتعالى المؤمنين نحو العفو والصفح ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ وهذا تحريض وحث للمؤمنين على العفو: الذي هو التجاوز عن خطأ المخطئ، والغض عنه، ونسيانه، والاجتهاد في عدم استحضاره. كما يحثهم على الصفح. الذي هو أعلى درجة من العفو. فالعفو المسامحة والتنازل عن الحق. والصفح هو ترك التثريب والمؤاخذة، والتنازل عن الحق في المعاقبة، وهو أبلغ من العفو، لأنه يتجاوز العفو إلى إزالة أثره من النفس. مما يتطلب مجاهدة النفس على التخلص مما عَلِق بها من الآثار النفسية والقلبية التي امتدت إلى السلوك، وأثرت فيه. مع مجاهدة النفس على عدم تذكرها. وهو أمر يحتاج إلى المغالبة بالمجاهدة. مما يبين قوة منهج الإسلام في تربية وتطويع العواطف لمكارم الأخلاق، ومحاسن التعامل وأفضله.

ثم يعزز ذلك العزيز الحكيم، بما يقوي النفوس على التخلق به، من خلال قوة المكافأة العظيمة، فيقول تبارك وتعالى﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ ألا تحبون أن يمدكم ربكم بإحسانه وإفضاله من ستر الذنوب، والعفو عن عقابكم عليها. فهو سؤال يستثير الأفضل والأبقى والأحسن والأكمل على الأدنى والأقصر، وترجيحه على مطامع النفس، وضعفها، وهفواتها. فورد الترغيب بأقوى الأساليب، وأعز وأغلى مكافأة. فهو أسلوب الحث والترغيب في هذه المكافأة العظيمة، هل أنتم عازفون عنها ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ فجواب المؤمن هو: بلى، نحب ذلك يا ربنا. إذاً فاغفروا واصفحوا عن زلات غيركم عليكم، ووسعوا عليهم بالخير والعطاء. ولذلك عندما سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية، قال: بلى، والله، إنا نحب أن يغفر لنا ربنا، ثم أعاد إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً[١] مما يدل على قوة وسرعة التجاوب من الرعيل الأول، الذي تمثل به أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فيعلم الله تعالى المؤمنين كيف يتعاملون مع من أخطأ عليهم، لأن منزلة العفو والصفح من عند الله تعالى أمر وشأن عظيم، إذ يكافئ اللهُ تعالى عليها بأحسن مما كان من العبد من العفو والصفح مع غيره من البشر، فإن الله سبحانه وتعال غفور رحيم.

ثم ختم الله عَزَّ وجل الآية الكريمة بقوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب في العفو والصفح. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وانه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى التسامح والصفح عن الأخطاء والزلات، ويكرمهم على ذلك بمغفرته

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٣)

لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة التآخي والتصالح، والتفاعل في أوجه الخير، ويشد بعضه بعضاً.

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى فيما سبق من الآيات حُكمُ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بانتشارها في الذين آمنوا، ثم تَبِعَ ذلك الوعظ والتحذير من خطوات الشيطان، ثم بيان منهج وأخلاق التعامل مع الذين تابوا، فبعد ذلك ينتقل السياق الكريم إلى بيان عقوبة قذف المحصنات من المؤمنات. فهو انتقال في تدرج من محبة إشاعة الفاحشة إلى فعل القذف، برمي المحصنات الغافلات المؤمنات، بما يدل على الإصرار والتجاوز من القاذف للمقذوفة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقد تضمنت الآية الكريمة تقرير العقوبة بأسلوب التشديد، المملوء بالتحذير، والمنتهي بعقوبة الدنيا والآخرة. فبدأت الآية الكريمة بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد تأكيد ما بعدها من سياق ونظم الآية ومنطوقها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ والرمي: هو التهمة، بالقذف، لأن الرمي هو قذف الشيء عن بُعد، وهو أقوى أثراً على الذي أصابه الرمي، فسماه سبحانه وتعالى رمياً لقوة أثر الرمي على من يصيبه. وورد البيان عاماً دون تخصيص، فيشمل جميع الموصوفات بهذا الوصف، وهن ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾

وقد ذكر العلماء أقوالاً: من حيث هل هي عامة، أو في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. فمن تلك الأقوال: أنها في عائشة رضي الله عنها، وقيل: في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل في المهاجرات، إذ كان المشركون يقذفون المرأة التي تخرج مهاجرة إلى المدينة، فيقولون: إنما خرجت تفجر، وقال قتادة، وابن زيد: أنها عامة في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهن[١] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن عرض الأقوال في المقصود بها: أن أولى الأقوال عندي بالصواب أن هذه الآية نزلت في أم المؤمنين عائشة، والحكم بها عام، في كل من كان بالصفة التي وصفها الله بها فيها[٢] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، خرج مخرج الغالب، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما[٣] وهذا يؤكد ويبين براعة الإعجاز البياني، إذ أن سبب النزول متعلق في معالجة شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولكن الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥١/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٠/١٧)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٣)

تعالى أخرجه مخرج العام، ليكون بياناً وحكماً عاماً، ويؤكد ذلك أن الوصف قد ورد بصيغة الجمع ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذي يشمل الجميع، ويجعلها حكمها عاماً.

وباعتبار ورود النص الكريم عاماً دون تخصيص، يكون قد استوفى الجميع إلى أن تقوم الساعة. وهذا من الإعجاز البياني الذي يستوفي لفظه وسياقه عموم وجميع ما أراده ربنا تبارك وتعالى من الخاص والعام. سواء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أو عموم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، أو المهاجرات، وغيرهن من عموم المسلمين إلى أن تقوم الساعة.

وقد تدرج الوصف لهن تدرجاً تصاعدياً ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إذ من دقائق البيان ترتيب الوصف ترتيباً ارتقائياً ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالإحصان علة وسبب في معاقبة من رماهن، فيشمل هذا ما كان تحصينها بسبب إضافي خارجي كالزواج، أو محصنة من داخل نفسها بعفتها. ثم الارتقاء إلى الغافلة، وهي أعلى درجة باعتبار قوة غفلتها عن الفواحش، إذ لا يدور في فكرها وذهنها ذلك الأمر، سواء كانت متزوجة أو لم تتزوج، ثم يرتقي الوصف إلى الإيمان الذي يحتوي الوصفين معاً، فالمؤمنة يمنعها إيمانها من الفواحش، سواء كانت محصنة، أو غافلة، فحتى لو انتقلت عن الغفلة لأي سبب، فإن إيمانها يعضد ما كانت عليه، أو ماهي عليه من الإحصان بالزواج، أو الإحصان بالعفاف. فالإيمان هو العاضد الأقوى، وهو حجاب المحصنات والغافلات.

فأول هذه الأوصاف: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: العفيفات، وهي المسلمة الحرة البالغة العفيفة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالمحصنات النساء. وخصَّهن بالذكر لأن قذفهن أشنع، والعار فيهن أعظم. ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم، بلا خلاف بين علماء هذه الأمة[1] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات، قياساً واستدلالاً[2] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في سبب ذكر المحصنات دون المحصنين: أن من رمى مؤمنة فلا بد أن يرمي معها مؤمناً، فاستغنى عن ذكر المؤمنين[3] وأيضاً في تخصيص النساء بصفة الإحصان، لغلبة وقوع الرمي عليهن. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن المحصنات: هن ذوات الأزواج، لأن الأزواج أحصنوهن، ومُنِعُوا منه. والمحصنات: الحرائر

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٣٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٥١)

وإن لم يكن متزوجات، لأن الحرة تُحْصَن وتُحْصِن وليست كالأمة[١] وهي: العفيفة، فتكون محصنة إما بعفتها، أو بتزوجها. ومن الفوائد اللغوية: أن المُحْصِن إذا كان حصنها من نفسها، والمُحْصَن إذا كان حصنها من غيرها[٢] فشمل لفظ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ ثلاث أنواع: أحدهما بسبب زواجها، والنوع الثاني: الحرائر باعتبار أنهن لا يدخلن في مُلك اليمين. والثالث: التي حِصنُها من نفسها، بعفتهن لأنفسهن عن الفواحش.

والوصف الثاني لهن، هو ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ اللاتي لا علم لهن بما رُمين به، فلم يخطر ببالهن فعل الفاحشة، فإن هن عن الفواحش غافلات. فمن شدة حيائهن أنهن بعيدات الفكر والذهن عن هذا الأمر. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر، لأنهن لم يجربن الأمور، ولم يرزن الأحوال، فلا يفطن لِمَا تَفَطَّن المجربات[٣] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: هن اللاتي لا علم لهن بما رمين به. وهذا كناية عن عدم وقوعهن فيما رُمين به، لأن الذي يفعل الشيء لا يكون غافلاً عنه[٤] ففيه تأكيد لبعدهن عن هذا الأمر، وانشغال فكرهن عن هذا الشأن، ولم يفطن له.

والوصف الثالث لهن هو ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ اللاتي اتصفن بالتصديق الكامل الذي قد تحقق به إيمانهن، فالإيمان وقاية وسياج، ولذلك ورد في الحديث انتفاء الإيمان عن المؤمن حين يفعل الفاحشة. فعن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[٥] مما يدل على قوة مَنَعَة الإيمان، فكيف إذا اجتمع معه الإحصان والعفاف، فإن وقوع فاحشة الزنا أبعد ما تكون عنه. فكيف بزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بنت الصديق رضي الله عنه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد أجمع العلماء رحمهم الله تعالى قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكِر في هذه الآية فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن[٦] مما يفيد أهمية التوقي والحرص من رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وأن لا يبني المسلم تصوراته وأحكامه على الظن والتخرص. وأن يتقي الله تعالى في أعراض المؤمنين.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٦/٢)
(٢)الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (١٢١)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٢٢١/٣)
(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤٢/٨)
(٥) البخاري، الجامع الصحيح (٢٤٧/٤) برقم (٦٧٨٢)
(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٨٧/٣)

ومن دقائق البيان أن الآية الكريمة لم تتضمن تعيين نوع الرمي، الذي هو المقذوف به، أو الْمُرْمَى به ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ ليستوعب معنى ودلالة الرمي: فاحشة الزنا، وغيرها من كل شائنة يرمي بها الرامي غيره. وفي هذا الإخفاء اظهار وإبراز للمحصنات الغافلات المؤمنات، وإبراز خطورة الرمي، مع إظهار قوة العذاب ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ وهذا من غزارة دلالات الإظهار والإخفاء في القرآن الكريم، التي تبين وتؤكد أنه كتاب قد ظهر الإعجاز في مضمونه، وبيانه وأحكامه، وتشريعه، ووعظه، وقصصه، وترغيبه وترهيبه، وجميع أساليبه.

ثم يذكر تبارك وتعالى ما يستحقونه من العقوبة، والتي أولها ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقيل أن هذه الآية خاصة بمن أصر على القذف ولم يتب. وقيل أنها تعم كل قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين، واختاره النحاس، وهو الموافق لما قرره أهل الأصول من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن معناها هو: عُذِّبُوا بالجلد، وفي الآخرة بالنار[٢] والعقوبة الثانية: هي: وعيد بنوع العذاب الذي سيكون لهم في الآخرة ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ أي: نار جهنم. إلا أن يتوب عن ذنبه ذلك. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فملعون في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته، فإن الله تعالى دَلَّ باستثنائه ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ على أن ذلك حكم رامي كل محصنة، بأي صفة كانت المحصنة المؤمنة الْمَرميَّةُ، وعلى أن قوله تعالى ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ معناه: لهم ذلك إن هلكوا ولم يتوبوا[٣] مما يبين أن التوبة تجب ما قبلها. فليحذر المؤمن من رمي الغير بأي نوع من أنواع القذف، فلا يدري عن منيته. فيتحمل العذاب العظيم. وهذا يؤكد ويبين حفظ منهج الله تعالى لأعراض الناس، وصيانتها، بأن لا تكون الأعراض عُرضَة للألسنة والقدح. بل يجب أن يكف ويعف المسلم لسانه عن غيره. وهذه العناية دليل على أن الإسلام دين الأخلاق، وحفظ الأعراض، بما يحقق التآلف الاجتماعي، وبما يؤكد أنه دين الله تعالى القويم.

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥١/٥)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٠/١٧)

ثم يقرر سبحانه وتعالى ما سبق من البيان بكمال عدله في الحساب والجزاء، وذلك بما يكون من شهادة أعضاء الجسم بما اعترف به القاذف على المقذوف من الإثم ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فلهم عذاب في ذلك اليوم الذي تنطق الجوارح بشهادتها بما كان منهم من أعمال في الدنيا. فكل جارحة تشهد على صاحبها فيما يخصها مما كان منها. وفي تعيين ذلك اليوم هو تأكيد لحصوله، وتهويله بما فيه من دقة الحساب، وعظيم العذاب. فيكون بذلك ترهيب وتحذير، ليحصل منه الموعظة الرادعة، التي تربي في المؤمن ضبط نفسه وإرادته بما يجب عليه تجاه غيره.

وخص سبحانه وتعالى ثلاثة أعضاء من بين أعضاء الجسم بالشهادة، وذلك للعلاقة بين أدوات وسُبُل القذف وبين المقذوف بهن من النساء، وكذلك الرجال من المؤمنين والمؤمنات ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ﴾ الذي يمثل النطق والتلفظ ﴿وَأَيۡدِيهِمۡ﴾ بما يكون من الإشارة بأيديهم تجاه المقذوفات من المؤمنين ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾ بما كان من السعي والمشي بأرجلهم إلى غيرهم، بنقل الإشاعة إليهم، وإذاعتهم لها. بل حتى جلد الإنسان يشهد، كما قال تعالى في سورة فصلت ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ فورد التخصيص بما يناسب المشهود له من الأعضاء. وهو ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من رميهم لغيرهم بالفواحش. وهذا من دقائق البيان في القرآن العظيم.

وحين ذاك الموقف من استيفاء الحساب بالشهادة، يكون حينها استيفاء الجزاء الذي شهدت به الأعضاء على أصحابها ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ فحين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ فحينها يوفيهم الله تبارك وتعالى ﴿دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ جزاءهم الثابت، الذي أصبح حقاً ثابتاً لا شك ولا ريب في ثبوته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿دِينَهُمُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: حسابهم. وكل ما في القرآن ﴿دِينَهُمُ﴾ أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد(١) وهذا من كمال عدل الله تعالى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٨٨)

فيدركون ذلك الوقت بكمال العلم لهم بأن ما جاءهم من عند الله تعالى حق واضح كما أخبرهم به ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ فيعلمون عند معاينتهم ومعايشتهم ذلك الموقف الذي أعلمهم الله تعالى به في الدنيا قبل وقوعه في الآخرة ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ أن ما نطق به القرآن الكريم في الدنيا بأن الله تعالى هو الحق الثابت فيما قاله، وفي ذاته وصفاته عَزَّ وجل، والمبين والمظهر للحق. فإن الله تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ لأنه حق لا ريب فيه جَلَّ جلاله، وأن عبادته حق واجب، وأنها لا تصرف لغيره، لأنه عَزَّ وجل الحق المستحق للعبادة، وما عداه باطل، والمبين والمظهر لكل شيء مما تتخفى به النفوس، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. البائن الظاهر سبحانه وتعالى عما عداه من الخلق.

ثم يقرر سبحانه في ختام البيان الشافي والكافي لحادثة الإفك ما ينفي أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يليق به، وإثبات البراءة لجميع أزواجه عليه الصلاة والسلام، وذلك بنفي التماثل الذي لا يليق بكل شبيه وشبيهه، بما يفيد بطلان وكذب وافتراء الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ومدح للذين برؤها ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ومن سعة دلالة هذه الآية الكريمة أنها تحمل تأويلات، تستوفي بها حالات وصور ما يحسن بالإنسان أن يفهمه ويكون عليه، وما لا يحسن به ليبتعد عنه. مع تكرار الجملة بعد تقديم المؤنث على المذكر، ثم تقديم المذكر على المؤنث، في بيان بديع عظيم في مبناه ومعناه، وفي عطاء دلالته التي تستوعب المراد من البيان.

وأول تلك الأوصاف هي: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ والخبيث هو: الباطل والقبيح والمكروه والخسيس من القول والفعل، ليستوعب ويستوفي أنواعه ومجالاته من الكذب والبهتان، وفي الاعتقاد وغيرها من الباطل. وورد التأويل من أهل العلم في دلالتها، كما ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أنه بعضهم قال: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء[1] فالكلمات الخبيثات لا يتكلم بها إلا الخبيث من الرجال والنساء. والكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثين من الرجال والنساء. والخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال. والخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال[2] فالخبيثات من النساء والكلمات هي للخبيثين من الناس.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٢٣٢-٢٣٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٥٢)

والخبيثون من الناس للخبيثات من النساء والكلمات. فاستوفت دلالاتها الأحوال اللائقة، التي تنتفي بها التهمة. وهذا من غزارة البيان، ومن غزارة تحليل العلماء الذي يتناسب مع معطيات الآية الكريمة، وسبب النزول.

وفي الابتداء بذكر الخبيثات باعتبار غرض الكلام وعلة المنشأ. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والابتداء بذكر ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ ﴾ لأن غرض الكلام الاستدلال على براءة عائشة، وبقية أمهات المؤمنين[١] وفي تكرار الوصف بالتقديم والتأخير لإفادة التأكيد والعناية بالوصف، وتحريرها بأسلوب المقارنة، مع التسوية بين الرجل والمرأة في الحكم. وفيه شد انتباه المتلقي مع تثبيت المضمون في ذهنه بهذا السياق البديع.

ثم ذكر سبحانه وتعالى شأن الطيبات والطيبين، وهو الوصف الثاني المضاد للأول: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ فالكلمات الطيبات لا يتكلم بها إلا الطيبون من الرجال والنساء. وتعطي دلالة أخرى كذلك، وهي: فأما الطيبات والطيبون فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطيب والطيبات. وتعطي دلالة ثالثة أخرى، وهي: والطيبات من النساء للطيبين من الرجال. وكذلك: الطيبات من الأعمال للطيبين من الناس. والطيبون من الناس للطيبات من الأعمال. بما يفيد تبرئة أم المؤمنين عائشة وصفوان رضي الله عنهما مما اتهمهم به القاذفون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهؤلاء مبرؤون ومنزهون مما قاله المفترون من الإفك المبين ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ فهؤلاء المبرؤون لهم من ربهم المغفرة ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ولهم الجنة.

وفي الآية الكريمة دليل على عدم تجانس الحق والباطل. والتفارق والتنافر بين أصحابها حين اختلافهم وتضادهم في ذلك. وبالتالي عدم التجانس بين من يحمل الحق وبين من يحمل الباطل، فلا بد أن يفترقا. فالنبي صلى الله عليه وسلم يمثل الحق الذي لا يمكن أن يقترن به الباطل في شيء أبداً، ومن ذلك زوجاته رضي الله عنهن، فلا يمكن أن يكون فيهن ملامسة للباطل. مما يُثبت نزاهتهن وطهارتهن، وأنهن مبرءات من كل باطل. ويستفاد من هذا البيان العظيم من الله تعالى: أن المرأة الطاهرة لا تقبل معايشة الرجل الفاجر. وكذلك الرجل الطاهر لا يمكن أن يتعايش مع امرأة فاسدة. ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ فالطيبة لا تقبل إلا طيباً، والطيبون لا يقبلون إلا طيبات. فالأصول على أشباهها تقع وتتعايش، ومع أضدادها تتنافر وتتفارق، ولا تتقارب، ولا تتجاذب. كما يقرر هذا الحكم من الله تعالى أن الله يخص الطيبات ويوفقهن للطيبين، بفضله ومنه وكرمه. وأنه عَزَّ وجل يوفق الطيبين للطيبات بفضله. وبالتالي إذا اجتهد المؤمن وفقه ربه تبارك وتعالى.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤٢/٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ ﴾

بعد أن أوضح تبارك وتعالى قبح جريمة القذف، وقبلها جريمة الزنا، وعقوبتها يُرشِدُ الحقُ سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى أخلاق وآداب الدخول إلى بيوت غيرهم، مع معالجة الأحوال التي يمكن أن تكون عليها تلك البيوت المقصودة والمعيَّنة، وفق بيان حكيم دقيق، يظهر به الإعجاز في استقصاء المعالجة، بحيث لا يبقى فيها شيء لم يعالج. فقال عزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ فأرشد تبارك وتعالى عباده المؤمنين بأن يمتنعوا عن دخول بيوت غيرهم، حتى يستأنسوا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ وهي المرحلة الأولى: ويكون ذلك الاستئناس من خلال الاستئذان، بالاستعلام والنداء بالصوت المسموع، أو الطرق على الباب، أو بحسب الحال الذي يحصل به الاستكشاف والاستئناس. وتحمل دلالة ﴿ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ ما يحصل به الأنس، وهو ضد الاستيحاش، فطارق الباب محل وحشة، حتى يعرف المطروق عليه الباب من هو الطارق، وذلك لخفاء حاله عليه.

ومن مزيد عطاء دلالة ﴿ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ أنها وردت بعد المنع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ بما يفيد وجوب الامتناع عن الدخول حتى يحصل الأنس ووقوع السلام منكم، لأن كلا الطرفين يحتاج إلى الأنس. فالقادم لا يعرف إن كان أهل البيت في الدار أو لا، فهو متوجس من أنه قد لا يجد في البيت أهله. واستئناسه بزوال جهله. كما أن أهل البيت يحتاجون معالجة مفاجأتهم بمعرفة من قَدِم عليهم حتى يستأنسوا به، وهذا يحتاج ويقتضي لطف النداء، لفظاً وصوتاً، وكذلك الطرق على الباب، ليتحقق الاستئناس على القادمين عليهم والقادمين إليهم. فهي قمة في الأدب والتنبيه، وجميل في اللطف والأدب. كما أن في ورود الاستئناس بعد المنع ما يفيد أن الأصل هو عدم الدخول، وغايته الاستئناس وما بعده من السلام، وهي المرحلة الثانية.

ثم المرحلة الثانية، وهي: ﴿ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ أي: إلقاء السلام على أهل البيت. وهو قول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وهذا قمة الأدب، ودقة في خطواته ومراحله التي تُزيل الوحشة بتدرج عن أهل البيت. ويوافيهم ويؤنسهم بأبلغ عبارة، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته التي تحمل الدعاء، وتحمل أن لكم العهد منا بأن لا يأتيكم منَّا إلا السلامة والأمان، والدعاء لهم بالسلامة والرحمة والبركة من الله تعالى. مما يدل على عظمة هذا الدين، وعظيم آدابه وأخلاقه. وأنه خير كله، ولا شر فيه البتة. وأنه يعلم أتباعه مكارم الأخلاق والآداب، وحفظ حقوق الآخرين. ومنع النفس عن الاطلاع على عورات غيرهم. وما يتحقق لصاحب البيت من الطمأنينة، والاستئناس والسلامة، وترتيب الحال.

ثم يذكر تبارك وتعالى علة وسبب ذلك، لإثارة التحفيز والاهتمام بما أمر به جَلَّ جلاله ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ فذلكم الاستئناس والسلام ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أفضل لكم من الدخول من غير الاستئناس والسلام ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لعلكم تحافظون على مداومة التذكر لما أوضحنا وبينا لكم، وأرشدناكم لهذا الأدب الرفيع لكي تعملوا به، وتستمروا عليه بتذكره، والأخذ به. بما يفيد تأكيد الالتزام به، وعدم مفارقته ونسيانه. فيكون محل العناية والاهتمام. فاشتمل التوجيه الكريم من حيث أسلوبه على البيان أولاً، ثم التعليل الذي يدفع النفس على الأخذ به بكل جد واهتمام. حتى يندفع به الشر عن القادم، وعن القادمين عليهم. كما أن ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تفيد المتوقع منكم تجاه هذا الذي بيناه لكم، أن تتذكروه، فتعملوا به. وهي تفيد الترجي عند العبد، أي: رجاء العبد القيام بما بينه الله تعالى له. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه لما يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

ومن غزارة فوائد هذا الإرشاد الكريم هو ابتداء التوجيه بالنداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ الذي يفيد التهيؤ لِمَا ناداكم له ربكم، والانتباه لمضمونه، ثم تلاه المدح لهم بخصيصة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يا من آمنتم وصدقتم بما جاءكم عن ربكم تبارك وتعالى. ثم تلاه الخبر بصيغة الأمر ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ثم بين بعد ذلك غاية الامتناع بحرف ﴿ حَتَّىٰ ﴾ وهي الغاية التي يجب أن تبلغوها، فتخرجون من دائرة المنع والنهي إلى دائرة الدخول ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ فإذا حدث هذا، وتحصلتم على المراد منه فادخلوا. ثم ذكر التعليل ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فتحصيل الاستئناس والسلام فيه خير عظيم لكم،

ثم الحث على التطبيق والمداومة على هذا النهج ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فاستمروا على هذا الأدب بمداومة تذكره.

ثم ينتقل التوجيه الكريم والأدب العظيم إلى معالجة الاحتمالات المتوقعة ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فكل قادم على بيت غيره فإن أمامه احتمالات، فعليكم أن تتقبلوا هذه الاحتمالات بصدر رحب. ففي حال الاحتمال الأول وهو ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ إن كان البيت خالياً من أهله، أو لم يسمعوا لهم حساً. وهنا لم يقل: إن كان أهل الدار ليس فيها، بل قال تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ فإن حصل في علمكم أنهم غير موجودين. لتستوعب احتمال وجودهم حقيقة، ولكن غير موجودين بالنسبة لكم، فتستوعب عدم الوجود، بخروجهم من منزلهم حقيقة، أو غير موجودين بالنسبة لكم لنومهم، أو لأي سبب وعلة أخرى، وهذا من براعة السياق الكريم، وغزارة معناه لكل احتمال، وإعجازه التشريعي في معالجة الاحترازات والاحتمالات. ولذلك اشترط ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بما يفيد إن لم يحصل لكم الإذن فامتنعوا عن دخولها، وإن أُذِن لكم فادخلوا.

ثم يأتي الاحتمال الثاني، وهو: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ فإن طَلَبَ أهل البيت منكم الرجوع عنهم، فيجب عليكم الامتثال ﴿فَارْجِعُوا﴾ بما يفيد لا تلازموا بابهم بالوقوف والإلحاح، أو سؤالهم وإحراجهم عن علة ذلك، فلا تعرفون سبب الرد لكم بالرجوع. وبالتالي لا تأخذوا في نفوسكم بشيء عليهم، من الغضب أو الحرج، أو التأويل الفاسد، فلربما حالهم لا يسمح لهم باستقبالكم. بل علل تبارك وتعالى محاسن الرجوع، بما يترتب عليه من النزاهة والطهر ﴿فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ فهذا الرجوع أنزه وأطهر لأخلاقكم، وأصلح لكم ولمرؤتكم من أن يستقبلوكم وهم في حالة قد تسوؤكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإن ربكم الله عليم بما يكون منكم، ومنهم، فاحذروا أن يحصل منكم ما يخالف أمره وتشريعه لكم. بما يفيد مجازاتكم على أعمالكم من الخير أو الشر. مما يفيد تحريم دخول البيوت إلا وفق ما شرعه الله تعالى، وأن من دخل بيتاً عنوة من غير ما شرعه الله تبارك وتعالى فقد ارتكب فعلاً محرماً. وفي هذا أدب عظيم جليل، وصيانة للبيوت وحرمتها، ومنعاً للإحراج، وتكليف الغير بما لا يطيقون.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما يتعلق بدخول البيوت الخالية من سكانها ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ يستثني تبارك وتعالى من الأصل التشريعي في حكم دخول البيوت نوعاً واحداً، وهي التي على ظهر الطريق، قد هُجِرت من أصحابها ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ لا إثم ولا تثريب ولا ملامة عليكم، فنفى الحرج سبحانه وتعالى على وجه الكمال في حال أنها ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ وهي الصفة الأولى لها. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ليس عليكم أيها الناس إثم وحرج أن تدخلوا بيوتاً لا ساكن بها، بغير استئذان. ثم اختلفوا في ذلك. أي البيوت عني؟ فقال بعضهم: عني بها الخانات، والبيوت المبنية بالطرق، ليس بها سكان معروفون، وإنما بنيت لمارة الطريق، والسابلة، ليأووا إليها[1] والصفة الثانية: ﴿ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ أي لكم فيها منفعة، كوضع المتاع بها، مما يحمله الإنسان من أمتعة، وكالاستراحة فيها، والاستضلال بظلها، أو المبيت بها، أو اتقاء الحر أو البرد بها. لأن رحابة بيان لفظة ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ تستوفي جميع أنواع ما يحصل به التمتع. ففي هذه المساكن الخالية ما يتمتع بها من مر بها.

ثم يختم الله تعالى حكمه الكريم بالتنبيه والتحذير ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يظهر منكم وما تضمرونه وتكتمونه في دخولكم تلك المساكن، فيعلم من دخلها وهو يضمر شراً لغيره، أو ينوي خيراً، فانتبهوا واحذروا مراقبة الله تعالى لكم. وفي هذا تربية للمؤمنين على أن تكون مقاصدهم خير في كل شأن، ومنها ما أباحه الله تعالى لهم من دخول المساكن التي لا ساكن بها.

وورد السياق بصفة العموم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فهو يعلم ما يظهر منكم وما تضمرونه وتكتمونه على وجه العموم، ليفيد كمال علمه عَزَّ وجل لعباده في جميع أحوالهم، مما يربي فيهم مراقبة ربهم تبارك وتعالى في كل وقت وحين، فإنه لا تخفى عليه خافية مما يُظهرونه، وما يكتمونه، ويُسِرُّون ويتخفون به عن غيرهم.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٨/١٧)

ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

بعد أن أرشد سبحانه وتعالى عباده إلى ما يتعلق بآداب دخول المنازل المسكونة وغير المسكونة يرشدهم إلى غض البصر وحفظ الفروج ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ورد الخطاب للمؤمنين من خلال رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بلغ وأرشد أيها النبي المؤمنين جميعاً إلى ما يجب عليهم. وفي تخصيص الإبلاغ بأن يكون عن النبي صلى الله عليه وسلم مزيد تكريم له عليه الصلاة والسلام، وأنه هو المبلغ رسالة الله تعالى إليكم أيها المؤمنون، فقل لهم ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ وهو أن يخفض النظر بتقليله وكسر حدته، ومنعه من التطاول والتشوف. ولما أن النظر واسع الاحتواء لما هو أمامه، فيشمل ما يحل له، وما يحرم عليه، وما هو مكروه. فورد النهي بأسلوب التبعيض على ما يقع عليه النظر ﴿ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ليرتفع به ما لا يمكن، وما لا يمتنع وينحبس النظر عن رؤيته، فيعالجه بالخفض المضاد للتحديق بالعين، والتصويب بالإرادة. وليفيد الاجتهاد في ذلك، لأن الإحكام التام للنظر قد لا يتمكن منه الناظر، فوردت المعالجة بحرف ﴿ مِنْ ﴾ مما يبين دقة المعالجة الربانية التي تبين وتوضح الإعجاز الإرشادي، الذي يتوافق مع الطبيعة البشرية، وطبيعة جارحة البصر، وطبيعة ما حولها من الموجودات.

فهو توجيه يباعد النفس عما يتأذى به الناظر، أو المنظور إليه، أو صاحب المنظور إليه مما قد لا يستطيع إخفاؤه وتخبئته. وهذا التوجيه الكريم عام لكل المؤمنين، وفي جميع الأحوال والأماكن. وباعتبار ما سبق من دخول المنازل المسكونة وغير المسكونة ما يرشد المخاطب إلى أنه عند دخولك المساكن فغض من بصرك عن كل ما يحرم أو يكره رؤيته. وتَجَمَّل بأخلاق وآداب النظر. حفظاً للرائي، وحفظاً لحقوق المنظور إليه. فهو يُبعد النفس عما قد تتأذى به.

ثم عطف سبحانه وتعالى حفظ الفروج على الأمر بغض النظر ﴿ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ والحفظ يكون بالوقاية من العلل والأسباب التي يحصل بها الوقوع في الزنا أو غيره من الحرام. وفي تقديم النظر على

الفروج، على اعتبار أن النظر بريد الفروج، فالنظر هو السبب، وحفظ الفروج متعلق بما ينظر إليه، وتفاعل وتجاذب معه. فإن وقوع الفاحشة يأتي بسبب النظر. وهذا من دقائق الإعجاز في التقديم والتأخير في كتاب الله تعالى.

ومن دقائق البيان الكريم انتفاء التبعيض عن جملة حفظ الفروج ﴿ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ وليس كما جاء في النظر ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ فانتفاء التبعيض لأنه لا يحل منه شيء البتة. وأن حفظه يكون حفظاً كاملاً. بينما ورد في النظر التبعيض لعدم القدرة البشرية على منعه مما يقع عليه، فأمر سبحانه وتعالى بالمستطاع من المقدور عليه، وهو الغض من البصر. وهذا من دقائق القرآن الذي يعجز أن يأتي بمثله الإنسان، وكذلك من دقائق التشريع الذي يتعامل وفق قدرات الإنسان وطبيعته التي خلقه الله تعالى عليها. ثم يُورد سبحانه وتعالى علة ونتيجة امتثال ما أمر به ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فاسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعود على الذي تمتثلون به من غض البصر، وحفظ الفروج ﴿ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أنقى وأطهر لهم، وأفضل في دينهم، وفي أخلاقهم، ولقلوبهم، وفي بُعدهم عن شروره ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ فإن ربكم عالم بما يكون منكم. ليفيد التحذير والترهيب من أن يرى ربكم منكم خلاف ما أمركم به، ونهاكم عنه.

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بغض أبصارهم وأن يحفظوا فروجهم، انتقل التوجيه الكريم إلى خاصة النساء فيما يتعلق بغض النظر وحفظ الفروج، واستكمال ما يخصهن من الزينة، وحدود الإظهار منها، ولمن يشملهم من الأقارب، من الرجال والطفل. قال تعالى ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بالرغم من شمولية الآية السابقة للرجال والنساء على وجه التغليب إلا أنه سبحانه وتعالى أفردهن بالتخصيص، وزاد عليهن ما يتناسب مع خصوصيتهن ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ

﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ وقل يا أيها النبي للمؤمنات ﴿ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ فإنه يلزمهن ما يلزم كافة المؤمنين من غض البصر عن المحرمات، وعما يكون سببا للوقوع في الحرام، وأن يحفظن فروجهن عما لا يحل لهن. وفي هذا التخصيص لهن ما يفيد التأكيد عليهن بذلك الأمر الذي يقتضي الوجوب، فيحرم نقضه. فالتزمن أيها المؤمنات بما أمركم الله تعالى به. وفي هذا ضبط لما قد يحصل من التساهل الذي قد يفضي إلى الوقوع في المحرمات. وقدم البصر على الفروج لأنه البريد الموصل إليها، ففي غض البصر سد للذريعة التي هي أكبر، وهي الوصول إليها. أي: فاحشة الزنا.

ثم أعقب ذلك النهي بنهي آخر ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ولا يُظهرن شيئاً من زينتهن، سواء التي يتزيَّن بها من الحلية المضافة كالأسورة أو زينة الخلقة، التي هي مواقع الجمال من المرأة، كالوجه، لغير مَحْرَم. وهذا عام، فالأصل هو عدم إظهار الزينة، ثم استثنى من الأصل، ومن عموم النهي ما ظهر منها ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ فالظاهر منها هو ما يظهر من الزينة من غير قصد وتعمد، كزينة الثياب الظاهرة، وزينة الوجه، فإنه مأذون فيه لمن سماهم وحصرهم الله تعالى في هذه الآية الكريمة، لأنه لا يمكن التحرز من ذلك، لظهوره وبروزه، كالثياب الساترة التي تُخفي الزينة الداخلية. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وذكر الزينة دون مواقعها: للمبالغة في الأمر، بالتصوُّن والتستر، لأن هذه الزِّيَن واقعة على مواضع من الجسد، لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء[1] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وفي النهي عن ابداء الزينة نهي عن ابداء مواضعها من أبدانهن بالأولى[2] وهنا تأتي أهمية تحرير الظاهر من الزينة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الزينة زينتان، فالظاهر منها: الثياب. وما خفي: الخلخالان والقُرطَان والسِّواران[3] وهي الزينة المضافة. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: زينتهن على ضربين: خفية: كالسوارين والقرطين والدملج والقلائد، ونحو ذلك[4] وقيل الظاهر: الوجه والكف والكحل والخاتم والسِّواران. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: الكحل والخاتم. وعن الضحاك عن ابن عباس: الظاهر منها: الكحل والخدان، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه: الوجه والكف[5] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك الوجه والكفان. يدخل في ذلك إذا كان كذلك: الكحل والخاتم والسِّوار

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٢٩)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٣)
(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٢٥٦)
(٤) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٥/٣٥٥)
(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٢٥٨)

والخضاب والثياب. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب، لإجماع الجميع على أن على كل مُصَلٍّ أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها. وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها[١] ليستنتج من ذلك أنه: لو لم يكن الأصل في الوجه والكفين أنها عورة لما استثناها من الأصل في الصلاة. وقال ابن عطية رحمه الله تعالى: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بألا تبدي، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن، ونحو ذلك[٢] وقال مالك عن الزهري في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الخاتم والخلخال. ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند الجمهور[٣] وقال ابن عطية رحمه الله تعالى كما أورده الشوكاني: إن المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة[٤] وهو ما يشق على المرأة ستره كالكفين. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: ولمراعاة فساد الناس، فلا تُبدي المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها. والله الموفق، لا رب سواه[٥] مما يدل على أن في الاستثناء رفع مشقة، لأنه استثناء من الأصل الذي هو المنع. ووردت الزينة بصيغة العموم ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ لتشمل الزينة الطبيعية من مواقع جمال الخلقة، وكذلك الزينة المضافة بالاكتساب كالحلي، وما تتجمل وتتزين به المرأة من المساحيق والخضاب ونحوه.

ومن فوائد دقة البيان في قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن فعل ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ أفاد أن لا يفتعلن إظهار الزينة، بتعمد الإبداء والإظهار، فالنهي واقع عليهن، لا يبدين ولا يظهرن، بينما في الإظهار ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لم يقع الفعل منهن، ولا عليهن، فلم ينسبه إليهن، وهو ما ظهر من غير افتعال، لإبرازه وإظهاره، فالإظهار لم يكن مقصوداً ممن حصل الإظهار منهن، وإنما كان أمراً عفوياً لا مقصد لها فيه، ولا عنوة منها في ذلك. وجعل الإظهار عاماً. وأخفى فاعل الإظهار، وأظهر ما يقع عليه الإظهار وهو الزينة، وذلك ليستوعب علل الإظهار وأسبابه الخارجة عن إرادة المرأة، كالناتج عن الخطأ، والنسيان، أو عن أثر الحال التي تكون عليها المرأة، من المشي، أو ما يكون من الرياح، أو عند تناولها شيئاً، أو نشرها

---

(١) المرجع السابق (١٧/٢٦١-٢٦٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٥٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٤)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٣)

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٥٢)

لشيء، أو غسله، فيظهر منها دون ابداء وإخراج بتعمد منها. فتشمل الأسباب التي لا حيلة لها فيها. فما ظهر منها من غير إرادتها ورغبتها وتساهلها فلا حرج عليها في ذلك. وبالتالي يكون المنع شاملاً، والاستثناء على هذا الوجه. وهذا من دقة السياق، سواء في اختيار الكلمة دون غيرها، أو في بناء مكونات الجملة، أو في أسلوب المعالجة، وبالتالي ظهر الإعجاز في البيان، كما ظهر الإعجاز في طريقة المعالجة التي تتناسب مع الطبيعة البشرية.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد إيراده لقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن اخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه[١] وفي هذا النهي تخصيص وتميز للمؤمنات عن غيرهن من الكافرات، وحفظ لهن، ووقاية لهن مما يسببه إظهار الزينة والمفاتن عند الرجال. وهو ضبط دقيق، وأخلاق كريمة. وفي هذا صيانة لعرض المرأة، ووقاية لها، ومعالجة لغيرة الأزواج على زوجاتهم، ومن رحمة الله تعالى أنه قد استثنى ما فيه مشقة من التستر. ويستفاد كذلك أن كل زينة تضيفها المرأة في بدنها فلا يحل لها أن تبديها وتظهرها، فالخلخال زينة إضافية، فنهاها أن تبدي صوته، مما يدل على أن عدم إظهاره واجب، وكذلك إذا وضعت الحناء فإنه يتحتم عليها بأن لا تبدي مواضعه لغير المحارم، وكذلك المساحيق التي يتزيَّن بها النساء، لأنها من الزينة المضافة، فلا تظهر لغير المحارم.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى كمال التستر، وتأكيد الحرص عليه بأقوى الدلالات ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: ليلقين بخمورهن، وهو القماش الذي تضعه المرأة على رأسها، فتلقيه على جيبها الذي هو الصدر والعنق، فيدخل في ذلك ستر الأقراط، والشعر. ومن المبالغة في ذلك، وتقوية الحرص أن وردت التغطية بفعل الضرب ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ لإفادة الإلصاق، والمبالغة في التغطية، والإلقاء بخمورهن على صدورهن. قال مقاتل رحمه الله تعالى ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي على صدورهن، يعني على موضع جيوبهن[٢] فالمقصود به الصدر والنحر، فيشددن على ستره بتغطيته. قال القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن الجيب إنما يكون في الثوب، موضع الصدر. وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم، على ما يصنعه

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٥٣)

النساء عندنا بالأندلس، وأهل الديار المصرية، من الرجال والصبيان وغيرهم[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى عن علة وسبب ذلك: ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرِطَة آذانها، فأمر الله تعالى المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن[٢] ومن فوائد هذا التشريع إباحة الزينة للنساء، وأنه مما يتلاءم مع فطرتهن. وأن الله تعالى لا يكبت الفطرة، بل يُشَرِّع لها ما يشبعها بالطرق السوية الضابطة للإنسان في مسلكه وسلوكه وأخلاقه. فإنه دين انضباط وأخلاق، يضبط الحرية الفردية عن التمادي فيها إلى ما يؤذي حرية الآخرين، ويوقع الأطراف في الحرام. لأن في إظهار الزينة تعدي على حرية الآخرين القلبية، وجذب الرجال إليهن، وإدخالهم فيما لا يجوز لهم.

ثم يحدد ويُعَيِّن اللهُ سبحانه وتعالى الأفراد بأعيانهم، الذين يباح للمرأة أن تظهر أمامهم بزينتها الخفية. تحديداً دقيقاً ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وقد أعيد هنا النهي عن إبداء الزينة، لإفادة التأكيد والتنبيه والحصر والقصر. فلا يبدين زينتهن الخفية، الغير ظاهرة، التي لم يبح لهن كشفها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن. فلا يضعن الخمار أو الجلباب إلا لأزواجهن ﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهو والد المرأة التي هي من صلبه، والجد وإن علا ﴿أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أو آباء أزواجهن الذين من أصلابهم ﴿أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ وهم الأبناء الذين منهن، وإن نزلوا ﴿أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وهم أبناء زوجها من زوجات أخريات، وإن نزلوا ﴿أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ وهم الإخوة الأشقاء ﴿أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ وهم أولاد الإخوة ﴿أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ وهم أبناء أخواتها. فجميع ما سبق من المذكورين في الآية الكريمة هم محارم للمرأة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: كل هؤلاء محارم للمرأة، يجوز أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج[٣] والمتأمل يجد أن هؤلاء الأصناف يترددون بكثرة على بعضهم البعض، ويقومون بما يجب من الرعاية والخدمة، فكانت هذه الفسحة أليق وأكرم بهن، خاصة وأن القريب لا يكون في نفسه شيء من قريباته من الرغبة فيهن.

ثم ذكر تبارك وتعالى نوعاً آخر، وهن النساء ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ وهن النساء المسلمات، قال أحمد رحمه الله تعالى: لا يحل للمسلمة أن تكشف رأسها عند نساء أهل الذمة، واليهودية والنصرانية، ولا تُقَبِّلان

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٥٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٤)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٥)

المسلمة[١] فيعم ذلك جميع غير المسلمات. ومن أسباب وعلل استثناء غير المسلمات لما قد يكون منهن من وصف ونعت المسلمات عند أزواجهن. بينما المسلمة تعرف أنه لا يجوز للمرأة أن تصف المرأة عند زوجها؛ وعند الرجال عموماً، لما قد ينتج ويترتب على ذلك الوصف من المفاسد، والتشوف لرؤية الموصوفة. أو ربما تعلق قلبه بها. فالإسلام يسد الذرائع المؤدية إلى المكروه والمحرم. وتشريعه كله أدب وحياء، وفي هذا التقنين ما يدرأ المفاسد.

ثم ذكر تبارك وتعالى الذين تملكهم المرأة من الرجال ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ وهم الإماء. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ظاهر الآية يشمل العبيد والإماء، من غير فرق أن يكونوا مسلمين أو كافرين[٢] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ولا يجوز أن ينظر إلى غير وجهها وكفيها. وقد نص أحمد على أنه لا يجوز أن ينظر إلى شعر مولاته[٣] وذلك لأنها سيدته، وتديره في كثير من شؤون الخدمة، وفي ذلك رفع مشقة الحرص والتحرص من كثرة تردده عليها، كما أن مُلكها له يجعل النفس تترفع من أن يكون هناك شيء منها له، أو منه لها ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أو الذين يتابعونكم من أجل تحصيل شيء من الطعام وسد الحاجة، ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم ﴿غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ والإربة هي الحاجة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هو الأحمق الذي لا حاجة له بالنساء[٤] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم في النساء، لأنهم بله، لا يعرفون شيئاً من أمرهن[٥] فيشمل كل من لا يكترث بالنساء، فلا إرب ولا إرادة له في النساء، ولا إرادة ولا حاجة له فيهن.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الصغار من الأولاد الذكور ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهم الصغار الذين لم تفطن ولم تظهر قلوبهم وأذهانهم على الرغبة في النساء، وليس لهم علم بذلك. فكلمة الظهور ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ تعني الاطلاع، فلم يبلغوا المبلغ الذي يجعلهم يطلعوا على عورات النساء، ويتطلعون لها. فلم يكن في خلدهم التشوف والترقب لذلك. وهم من كان دون سن البلوغ. فإذا بلغ يكون قد

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٦/٥)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٤/٤)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٦/٥)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٦/١٢)
(٥) الزمخشري، الكشاف (٢٣١/٣)

تجاوز هذه المرحلة من الطفولة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: لم يطلعوا عليها، وهذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء، وذلك ما قبل سن المراهقة[١] وورد الطفل مفرداً ﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ بينما الفعل الخاص بهم في الآية أفاد الجمع ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ لأن المراد به جنس الطفل، فلذلك أجرى عليه الجمع. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الطفل يطلق على المفرد والمثنى والجمع، أو المراد به هنا الجنس[٢] أي جنس الأطفال.

ثم من دقة التحوط والتستر ينهى اللهُ تبارك وتعالى المؤمنات عن الأسباب التي تكون ذريعة لإظهار وإبراز الزينة، سواء كان في شكلها وصورتها، أو من خلال صوت ما تلبسه من الزينة كالخلخال. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فلا تتجاوز في مشيها وسيرها من السرعة والقوة ما يُظهر شيئاً من زينتها، سواء من صوت الحلي، أو ما يكون من أثر المشي، وبسببه. وذلك درأ للفتنة. مما يبين أن سد الذرائع والأسباب المؤدية إلى الفتنة المحتملة واجب، فالشيء قد يكون مباحاً في ذاته ولكنه يؤدي إلى محرم فيقع عليه حكم التحريم، فإذا خِيف من وقوع المحرم مُنع ذلك الشيء أو عولج شأنه بما يناسب واقع الحال. وهذا من حرص شريعة الله تعالى على المرأة، وحفظها. فورد النهي عن الضرب على الأرض ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ لعلة إظهار الزينة ﴿لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فبالضرب على الأرض بأرجلهن يتحقق به الإعلام بما هو مستور من الزينة، وأنها متجملة متزينة، فأظهرت بالضرب حكم المباح إلى ما يحرم عليها إظهاره، فنهيت عن السبب، درأ للمصلحة. وهذا من دقائق المعالجة في دين الله تعالى، ليظهر لكل أحد أنه لا يمكن أن تكون هذه المعالجة الدقيقة إلا من عليم خبير سبحانه وتعالى.

ثم أرشد تبارك وتعالى عباده جميعاً إلى التوبة، لأن حدوث التقصير وارد من المسلم، فحث عَزَّ وجل عباده على التوبة ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فتوبوا إلى ربكم من ذنوبكم. والتوبة هي: الإقلاع عن الذنب، والعزيمة على عدم العودة إليه، والندم على ما كان من الذنوب.

فافعلوا ما أمرتكم به أيها المؤمنون، وارجعوا إلى طاعة ربكم فيما أمركم ونهاكم، وعالجوا نقصكم وأخطاءكم بالتوبة مما يحصل منكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ليتحقق الفلاح والفوز منكم، بلزوم طاعته تبارك وتعالى. فتفوزون في الدنيا برضا الله عنكم، وتفوزون في الآخرة بالجنة. وجملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيها استنهاض وحث وترغيب للوصول إلى تحقيق الفلاح بالتزام الطاعة التي توصلكم للفلاح. فإرشادنا لكم لهذه الأحكام

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥٨/٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٤/٤)

الضابطة لحيائكن حتى تعملوا بها، وتستمروا عليها بتذكره، والأخذ به. بما يفيد تأكيد الالتزام به، وعدم مفارقته منكن ونسيانه. وليكن محل عنايتكن واهتمامكن. فاشتمل البيان من حيث أسلوبه على البيان أولاً، ثم التعليل الذي يدفع النفس على أخذه بجد واهتمام. فيندفع به الشر. كما أن ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تفيد المتوقع منكم تجاه هذا الذي بيناه لكم، أن تتذكروه فتعملوا به. وهي تفيد الترجي، أي ترجي العبد القيام بما بينه لله تعالى له. ففيه استثارة للعقل والمشاعر نحو الانضباط، والقيام بما أوجبه الله تعالى.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى النساء بغض البصر، وحفظ الفروج، وشَرَّعَ لهن أدب الزينة، ينتقل السياق إلى معالجة الأسباب التي تصرف الإنسان عن فاحشة الزنا. بإيجاد البدائل المشروعة التي تغني عن الحرام، فيأتي الحث على الزواج، وبتشريع الترغيب للأولياء في تزويج الأيم، وهو من لا زوج له، سواء كان رجلاً أو امرأة ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فورد الحث لأولياء الأمور بالأمر ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ الذي يفيد وجوب العناية بهذا الشأن والأمر، وهو التزويج، بما يفيد أن لا تتساهلوا فيه، بل اجعلوه محل اهتمامكم وعنايتكم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: رجل أيِّم، وامرأة أيِّم، ورجل أرمل، وامرأة أرملة، ورجل بكر، وامرأة بكر: إذا لم يتزوجا. وامرأة ثيب، ورجل ثيب: إذا كانا قد تزوجا[١]

ومن دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى لم يُبرز ويُظهر المأمورون به ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ ليشمل كل من له ولاية على غيره، من أب أو أخ أو عم أو خال، أو غير ذلك، سواء من ناحية طرف الزوج أو الزوجة، أو نفس الرجل الذي ليس عنده زوجة بأن يتزوج، فيتخذ لنفسه زوجة. وهذا من دقائق التشريع وإعجاز البيان

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٧/٥)

في استيفاء الأعيان المعنيين بالأمر. وهو خطاب يشمل جميع الأولياء، كما يفيد الحث على إعانتهم ومساعدتهم على الزواج، وإزالة ما يعيق تحققه ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ فزوجوا من لا زوج له، وهو الأيم. رجلاً أو أنثى، بكراً أو ثيباً. بما يفيد الترغيب والحث عليه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالأيامى هنا: الأحرار، والحرائر[١] وقد ضبط عين الأزواج بقوله عزَّ وجل ﴿مِنكُمۡ﴾ من دينكم، فليس بخارج عنكم، فيخرج به من ليس بمسلم، بما يفيد أنه من ملتكم. وهم الأحرار ممن لا زوج له.

ثم أورد تبارك وتعالى العناية بالمماليك، بقوله تبارك وتعالى ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ أي: وزوجوا عبيدكم المتصفين بالصلاح. ورأس الصلاح الدين أولاً، ثم الأخلاق، وما يندرج تحت الصلاح من الأوصاف. قال الطبري رحمه الله تعالى: وزوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له، من أحرار رجالكم، ونسائكم، ومن أهل الصلاح من عبيدكم، ومماليككم[٢] فيكون المقصود ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ هم عبيدكم، وهو جمع عبد، وهو الرقيق. قال المفسرون رحمهم الله تعالى: والمراد بالآية هو الندب، ومعنى الصلاح ها هنا: الإيمان. والمراد بالعباد ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ﴾ المملوكين. فالمعنى: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وولائدكم[٣] ﴿وَإِمَآئِكُمۡ﴾ أي: الإماء المملوكات. فالمعنى: زوجوا المؤمنين من عبيدكم وإمائكم.

وفي هذا معالجة وعناية من الله تبارك وتعالى بإشباع الفطرة البشرية عند الإنسان، وفق أحواله التي يكون عليها، إذ شرع لهم في دينه ما يحقق مرادهم، ويحفظ دينهم وأخلاقهم، لأن الزواج هو الطريق الشرعي لقضاء شهوة الجماع، وهو الوسيلة الشرعية للإنجاب، وصيانة الأنساب، وحفظ المجتمع، وترقيته ليكون مجتمعاً صالحاً. كما أن في ذلك توجيه لكل أحد من المسلمين بأن يبذل غاية جهده في تسهيل أمور الزواج، والعناية والاهتمام بغيره، ومنها هذا الشأن الذي بصدده الآية الكريمة.

ثم بعد هذا التشريع العظيم يعالج سبحانه وتعالى ما قد يكون من الموانع، بسبب فقرهم، وقلة ذات اليد، فإنها ليست بموانع حقيقية. لأن الرزق عنده جَلَّ في علاه ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فإن كان هؤلاء المأمور بتزويجهم فقراء، فإن الله تعالى يغنيهم من رزقه وكريم عطائه. مما يفيد أن النكاح سبب للغنى، ونفي للفقر وإزالته. كما يفيد ذلك أن الفقر والغنى ليس لهما علاقة بالصلاح. ومن دقائق المعاني: أن ورد

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٧٤/١٧)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٧/٥)

لفظ الإغناء بصيغة الفعل المضارع ﴿يُغْنِهِمُ﴾ الذي يفيد الاستمرار في الإغناء. وفي هذا حث من الله تعالى على النكاح، وأن من بركته توفيق الله تعالى لمن تزوج، بأن يغنيه عَزَّ وجل، مع الاستمرار في تسهيل وتيسير إغنائه، بما يزيل فقره. فإن هذا البيان القطعي يزيل التخوف من حال الفقر الذي قد يكون عليه الراغب في الزواج، فلا تجعلوه عائقاً ولا مانعاً. ثم أكد ذلك تبارك وتعالى ببيان قدرته وصفاته العظيمة، من السعة في الرزق والعلم ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فإنه جَلَّ جلاله واسع الرزق، وواسع العطاء، وذلك لعظيم ما عنده، فإن له جميع خزائن الأرض، جَلَّ جلاله، وأنه عالم بكل أحد، وما يستحق، وما يكون منه، وما يكون له من الرزق، ومقدار ما يصلح به حاله، وما يفسد عليه حاله. كما يفيد ﴿عَلِيمٌ﴾ التحذير من ارتكاب المعاصي، وما يزول به الرزق. فليحذر العبد من ذلك، فإن الله تعالى عليم بالعباد، وبأحوالهم، وبما يصلحهم، وبما يكون منهم، فاستقيموا، واطلبوا العون منه، وأحسنوا الظن به تبارك وتعالى.

ثم يعالج تبارك وتعالى حال من عجز عن النكاح، فتعسرت أمور زواجهم لأي سبب من الأسباب، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يأمر الله تعالى من عجز عن النكاح لأي سبب من الأسباب بالتعفف، فيطلب العفة ويأخذ بها عن الوقوع في الحرام. وبَدَأ البيان الكريم بالأمر، لبيان وإظهار أهمية ما أمر به سبحانه وتعالى، ووجوب الأخذ به، وهو ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: الامتناع عن الحرام، بتكلف التمنع الذي يتحقق به التعفف، ولزومه طِيلَة وجود المانع منه. ومن دقائق الألفاظ أن مبنى لفظ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ على وزن استفعل، بما يفيد المبالغة في فعل التعفف الذي يتطلب ويستوجب التكلف في منع النفس عن الحرام، ثم عَيَّن وحدد تبارك وتعالى الذين أوصاهم بالتعفف ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ فمن امتنعت قدرته على النكاح فليتعفف عن إتيان الحرام. فيشمل كل من تعذر عليه النكاح بأي وجه كان؛ بأن يُلزِم نفسه التكفف الذي يتحقق به التعفف.

ومن دقة التوجيه الكريم أنه لم يحدد نوع المانع، ليستوفي جميع أنواع الموانع، سواء كان عند الرجل أو عند الأنثى، وسواء لقلة ذات اليد، أو لإذن أوليائهم، أو لأي سبب من أسباب الموانع التي لا حصر لمفرداتها ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ حتى يوسع الله تعالى عليهم بما يمتن من إزالة الأسباب المانعة. وفي ربط

الإغناء به سبحانه وتعالى هو بعث الأمل؛ بأن الله تعالى سيغنيه، فما عليه إلا الصبر حتى يحصل له من الله تعالى الإغناء الذي تنفرج به كربته، وفيه كذلك ربط عقيدة المؤمن بأن المغني هو الله سبحانه وتعالى، فليسأل ربه الذي يعينه بالرزق والعطاء والتوفيق على الاستعفاف، ويعينه على تحصيل مراده ومبتغاه من النكاح. وربط سبحانه وتعالى الأمر بالاستعفاف للحد والغاية التي هي: ﴿ حَتَّىٰ ﴾ إلى غاية ما يغنيه ربه تبارك وتعالى، ويُشبع حاجته ومراد ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فإذا أغناه الله تعالى من فضله؛ فقد زال بذلك تكلف التعفف. ومن جميل البيان ودقائقه أن الله سبحانه وتعالى لم يحدد نوع الفضل ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ليستوعب جميع أنواع الفضل من الرزق، ومن إزالة الموانع.

ثم انتقل البيان الكريم إلى معالجة حال الذين يريدون أن يتحرروا عن أسيادهم من العبيد والإماء، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فتوجه الخطاب إلى من عندهم شيء من العبيد والإماء، فيبين لهم عَزَّ وجل الطريقة المنضبطة بالحق، حتى يُصبح بها المملوك حراً ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ فالذين يريدون مكاتبتكم أيها المؤمنون من عبيدكم وإمائكم، بأن يشتري نفسه منكم ليكون حراً ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فأجيبوا طلبهم بمكاتبتهم، إن استقر في علمكم أن في ذلك خير لهم ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فإن علمتم أيها المؤمنون في الطالبين للمكاتبة من عبيدكم وإمائكم ما يَصْلُحُ به شأنهم، ولا يحصل بمكاتبتهم شر، ولا بغي، ولا فساد منهم، فاستجيبوا لمطالبهم، وحققوا مرادهم. فجعل تبارك وتعالى الخيرية شرط للتحرر من الرق. إذ وَرَدَ الشرط بناء على وجود ما تفضي إليه المكاتبة من الخير. ولم تحدد الآية الكريمة نوع الخير، ليستوعب مفرداته وأنواعه التي يعرفها المالك من أحوال عبيده وإمائه، سواء من صلاحهم الديني، أو رشدهم في إدارة شؤونهم، وتكسبهم، وسلامة مرادهم من التحرر، وغير ذلك من جوانب ومفردات الخير، وامتناع الشر والفساد من تحررهم.

مما يدل على أنه حال علمكم بورود الشر من مرادهم فلا تكاتبوهم، منعاً للفساد في أي وجه ونوع من أنواعه، كالفجور والبغي ونحوه. مما يدل على حرص منهج الله تعالى على تحقيق المصالح، ومنع المفاسد، بحسب ما تتحقق به المصلحة. وهو أمر يفيد الندب الذي يرتقي إلى تغليب الوجوب ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ إذا علم المولى أن في ذلك خير للعبد أو الأمة ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ مع الترغيب الشديد، الذي يدل عليه إيجاد الطرق المحكمة والمنظمة والمنضبطة لتحقيق التحرر. وقد اختلف العلماء في وجوبه، أو أنه للندب. والذي يظهر أنه للوجوب إذا توفرت الشروط من الخيرية، واستيفاء ما تكاتبوا عليه.

واختصر السياق الكريم هذه العملية التفاوضية بين السيد ومن هم تحت يده بكلمة المكاتبة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي يريدون التعاقد معكم على التحرر من الرق. وهو التعاقد بعد التفاوض. ثم كررها سبحانه وتعالى في الأمر بها ﴿ فَكَاتِبُوهُمۡ ﴾ فعاقدوهم بعقد تكتبونه معهم على ذلك، وسهلوا أمرهم، ولا تجبروهم على البقاء على حالهم، إن كان في عتقهم خير لهم. وقد ذكر عَزَّ وجل مصلحة الأرقاء، لِيُفْهَم منه: أهمية تقديم مصلحتهم على مصالحكم. بل حثهم على إعانتهم بالمال، أو أن تَحُطُّوا عنهم شيئاً مما كاتبتموهم عليه، فقال تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ وهذا أمر للسادة وهم الموالي بأن يعينوا عبيدهم بإسقاط ما لهم من مال على مواليهم، وأعطوهم بإعانتهم مما رزقكم الله تعالى من المال، وفي هذا حث للموالي بأن يعطوا عبيدهم شيئاً مما في أيديهم من المال تفضلاً، أو أن يحطوا عن الراغب في التحرر شيئاً مما يكاتب عليه عبده. ولم يُعَيّن ويحدد مقداره، ليجتهد السيد بقدر وسعه وسخائه في التنازل عن الذين كاتبهم على التحرر. وهو يشمل الإعانة فضلاً عن الحط، لأن الغاية هي إعانتهم على تحقيق التحرر، وما يفضي إليه ويتحقق به لهم من متاع الحرية والنكاح، والتكسب لنفسه ولذاته. كما أن في تسمية التخفيف وإسقاط الحق أو شيئاً منه بصورة الإيتاء ﴿ وَءَاتُوهُم ﴾ ما يدل على أن الإسقاط من الحق هو نوع من العطاء، وبالتالي يشمل الوجهين معاً، سواء العطاء المباشر بالإعانة المالية، أو بإسقاط شيئاً من الحق الذي للسيد على عبده في المكاتبة، فقد جعله الله تعالى بمثابة الإعطاء.

وكذلك يشمل قوله تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ ندب الأغنياء على إعطاء شيئاً من زكاة الأموال؛ بما يعين العبيد المكاتبين على التحرر، قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: عني به إيتاءهم سهمهم من الصدقة المفروضة[١] أي: الزكاة. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى وغيره. أنه خطاب للأغنياء الذين تجب عليهم الزكاة، أُمِروا أن يُعْطُوا المكاتبين من سهم الرقاب[٢] وفي هذ الحث الذي ورد بصيغة الأمر ما يفيد وجوب التزامه وتطبيقه، حتى أن الله سبحانه وتعالى رَغَّب في العطاء لهم بفعل الأمر ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ قال القرطبي رحمه الله تعالى: قلت: وقد قال الحسن والنخعي وبُريده: إنما الخطاب بقوله تعالى ﴿ وَءَاتُوهُم ﴾ للناس أجمعين، في أن يتصدقوا على المكاتبين، وأن يعينوهم في فكاك رقابهم. وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب للولاة، بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظَّهُم، وهو الذي

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٩/١٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٥٨/٥)

تضمنه قوله تعالى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ وعلى هذين القولين فليس على السيد المكاتب أن يضع شيئاً عن مكاتبه(١) وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: ففي هذه الآية الأمر للمالكين بإعالة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأن يعطوهم شيئا من المال، وبأن يحطوا عنهم مما كُتِبُوا عليه، وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار(٢) وهذا من سعة دلالة البيان ليستوعب جميع أوجه إعانة الراغب في التحرر، سواء كانت الإعانة من مولاه، أو من الأغنياء، والميسورين من الناس، بإعانتهم بما يستطيعون، أو بأموال الزكاة، فكلٌ بما يمكنه ذلك. وهناك فروع من المسائل المتعلقة بصفة العقد، وميراث المكاتب وغيرها، قد تناولها بالتفصيل الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في كتابه الثمين: الجامع لأحكام القرآن.

ومن دقائق البيان أن نسب الله تعالى المال الذي عندهم له عَزَّ وجل ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ فهو الذي آتاكم المال، وتفضل به عليكم، وبالتالي هو الذي يُخلِفه لكم بخير منه. وفي هذا التنويه لهم بذلك ما يدفعهم للعطاء والبذل، وأيضاً يزيل عنهم ما يمنع التردد عن الإعطاء، أو أن يحط عنهم شيئاً مما كاتبهم عليه، بما يسهل عليهم أمر التحرر. ليدل على جميل المعالجة، وليدل على أن الأرزاق هبة من الله تعالى.

ثم ينتقل البيان والتوجيه الكريم إلى معالجة البِغَاء، وهو الزنا، الذي يكون من الإماء عن طريق أوامر وتوجيهات سادتهم ومواليهم لهن، إكراهاً لهن على ذلك، من أجل تحصيل المال والتكسب من ممارستهن الزنا، بل وصل إلى درجة الإجبار لهن على ذلك. فقال الله تعالى معالجاً لهذا الأمر ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فهناك حالتان متضادتان، الأولى، متعلقة بالإماء، وهي: تعفف الإماء، مع إرادتهن التحصن ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا ﴾ والحالة الثانية متعلقة بالسيد أو المولى: الذي يريد من أمته أن تزني على كره منها، ليتكسب من أجرة وثمن زناها ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فهما أمران متعارضان في الرغبة والإرادة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٦٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٩)

فوردت المعالجة بالنهي الذي مقتضاه التحريم. وسماهن الله تبارك وتعالى في هذا الموضع بلفظ الفتاة، ولم يذكرهن بلفظ الإماء، فقال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ رِفْعَةً لهن، وترفع بهن، حين أنزلهن مواليهم منزلة المتاجرة بأعراضهن، على كراهة منهن للبغي، فقابل الله تعالى ذلك الحدث بالرفع من شأنهن، ابداء وإعلاناً لشناعة مَن صَنَعَ بهن ذلك الصنيع. وتهوين وعتاب لمن وضعهن ذلك الموضع المهين، من أجل ابتغاء عرضاً مِن الدنيا الحقيرة. فعالج تبارك وتعالى ما يدور في أنفسهن من ألم التحقير بهن إلى درجة التكسب بأعراضهن، بأن سمَّاهن فتيات، وعالج ذلك بالتحريم والإبطال. فهي معالجة من جميع النواحي، ومنها: الأخلاقية والنفسية. وورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي. وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي)[1] وفي هذا النهي منه صلى الله عليه وسلم ارتقاء بالألفاظ، ومراعاة للمشاعر، والتمسك بمكارم الأخلاق حتى في الألفاظ. بما يفيد التوجه إلى حُسن المعاملة، والانتقال بها من الاستعباد إلى المماثلة للبقية، لأنها تُطلق على الحر والعبد، ولا تدل على الملك بمثل ما تدل عليه دلالة عبدي وأمتي، خاصة وأن العبودية لله تعالى. وبَوَّب الإمام البخاري، باب: كراهية التطاول على الرقيق. أي الترفع عليه، ومجاوزة الحد في ذلك، فهي كراهة تنزيه.

والبغاء من الأنثى هو: التجاوز والفجور بتعاطي الزنا، فتجاوزت التعفف، وفجرت بما هي فيه من الزنا. ففي ذلك نهي للمسلمين عما كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا، ليكسبوا المال من فعلهن وممارستهن للبغي. وفي تخصيص النهي حال إرادتهن التعفف، على اعتبار ما كانوا عليه في الجاهلية، وليس القصد إتاحة الزنا وإباحته لمن لا تريد التحصن، بل باعتبار معالجة الغالب والشائع. فالإكراه لا يكون إلا عند التمنع وإرادة التحصن، وبالتالي لا يعني جوازه عند عدم حصول الإكراه، وعدم إرادة التحصن، لأن هناك من ليس له رغبة في النكاح أصلاً. وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فالآية نزلت توطئة لإبطاله، كما نزل في تحريم الخمر[2] وهذا وجه، ولا يمنع الوجه الآخر. والذي يظهر أنه إخبار عن واقع، ومعالجة لحالة قد اشتد فيها الطغيان والتمادي بين متعفف عن الزنا، وكاره له، وممتنع عنه، وبين مُكْرِه ومتسلط بحكم السلطة والولاية، من أجل المتاجرة وكسب المال ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهو من باب إظهار التمادي في الفجور، وبشاعة الظلم والجبروت والطغيان والاستبداد. وإظهار أوجه التضاد بين من أراد الآخرة وبين من أراد تجارة الدنيا، حتى وصل به الأمر إلى هذا الطغيان الشرس.

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح (٢٢١/٢) برقم (٢٥٥٢)

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦٨/٨)

وبالتالي ليس فيه إباحة لغير المكرهة من الإماء، لأن الداعي له من السيد نحو مولاته هو ابتغاء المال ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فالراضية طائعة، وأما غير الراضية فإنها مكرهة، لأن هدف سيدها هو المال. وفي هذا تشنيع وتجريم بحق من يكره إماءه على البغاء، كما أن فيه بيان لجبروت وقوة معصية من يكرههن على الزنا، بمخالفته شريعة الله تعالى، ومخالفته الطبيعة الإنسانية، والفطرة السوية، وتحذير وتهديد لمن أكرههن. وأما التي لا تريد التحصن، فتكون غير مكرهة، فإن مولاها المؤمن ملزم بمنعها، لأن الأصل في الزنا أنه محرم، وهؤلاء تجاوزوه إلى الإجبار والإكراه، فخصهم بالمنع والتهديد والتهويل للإقلاع عنه. مما يبين حرص شريعة الله تعالى على منعه، وعدم تفشيه، بإغلاق أبوابه التي تفضي للوقوع فيه.

ثم عالج سبحانه وتعالى شأن من أُكْرِهَت من سيدها على الزنا، وهي تريد التعفف، فقال تعالى ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن يكره أمته على الزنا، فإن الله تعالى من بعد هذا الإكراه الذي وقعت فيه الأمة لغفور لها، ورحيم بها، وبحالها. وفي هذا تطمين لمن ليس الأمر في يدها، مع كرهها وبغضها لِمَا أُكرِهَت عليه من الزنا بأن الله تعالى بها غفور رحيم، لأنه مطلع عليها. بما يفيد أن العقوبة إنما تقع على من أكرهها، وأجبرها. وفي هذا تهديد ووعيد على أولئك السادة الذين يُكرِهُون فتياتهم على البغاء. وهذا من لطفه تبارك وتعالى ورحمته بعباده.

وبعد هذا البيان لما سبق من معالجات لكثير من قضايا الإنسان، يخبر عَزَّ وجل عباده بأن في القرآن الحجج والتشريع والأحكام والمواعظ التي تبين لكم ما تحتاجونه في حياتكم الدنيا، ليكون زادكم إلى الآخرة. فيمتدح ربنا تبارك وتعالى كتابه القرآن العظيم، بما فيه من التوضيح المبين، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فلقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات، وبراهين، وحجج في القرآن الكريم، واضحة الدلالة لما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم. وأفادت كلمة الإنزال ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ أن القرآن الكريم كتاب مُنَزَّلٌ من الله تعالى، وأفادت كلمة ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بأنكم أنتم المعنيون والمخصوصون أيها الناس بهذا الكتاب، فقد أنزلناه إليكم. مما يُثبت أنه من الله تعالى.

وقد اتصفت آيات الله تعالى في هذا البيان بثلاثة صفات: الأولى: الوضوح من كل وجه ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ آيات واضحات في تفاصيلها وبيانها، ودلالاتها ومعانيها، ومُوضِّحَات لما أنزلت فيه وبصدده. وفي هذا غاية التزكية والمدح للقرآن العظيم، بما يفيد أن ليس لكم حجة بعد أن رفع ربكم بآيات القرآن الجهل عنكم. فلا حجة لمن قال لم أكن أعلم بذلك الحرام، حتى أجتنبه، ولم أعرف ذلك الحلال حتى اقتصر عليه. فلا حجة لأحد في الجهل بما أنزل الله تبارك وتعالى من العلم الواضح في كتابه القرآن الكريم. فإنه متصف بالحجج

والبراهين الوضحة التي تضمنها كتاب ربنا جَلَّ في علاه، فجملة ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ تدل على أن القرآن مجموعة عظيمة من الآيات، وأن لفظ دلالة الآيات يدل على الجمع وعلى كثرة المعالم والحجج والبراهين، وأنها ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات وموضحات، فهي واضحات في ذاتها، وموضحات لِمَا بينته من الأحكام والتشريع، والحجج والبراهين.

والصفة الثانية: إيراد الشواهد لكم بالأمثلة ممن سبقكم من الأمم ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقد احتوى هذا القرآن العظيم على أمثلة مما كان قبلكم من الأمم السابقة، فأورد لكم أخبارهم، بما حدث منهم، وبما كان من قضاء ربكم فيهم، بنصره للمؤمنين المتابعين لما جاءهم من الحق، وعذابه وبطشه بالذين كفروا وكذبوا بما جاءهم من الحق المبين. كما أنه متضمن للأمثال التي تبين لكم الحق، وتكشف لكم الباطل، فيقرب لأفهامكم بتلك الأمثال ما يتحقق به الفهم والإدراك. بما يفيد: فاتعظوا بمن سبق، ليتحقق لكم الفلاح. وأنه لا حجة لكم بعد هذا الإخبار والبيان.

والصفة الثالثة: أن آياته تبارك وتعالى متضمنة للمواعظ التي تستثير القلوب والعقول نحو الصلاح والاستقامة ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ففي القرآن الكريم المواعظ المتعددة من الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، التي يأخذ بها المتقون ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مما يفيد أن المتقي هو الذي يتجاوب مع المواعظ، فيأخذ بما وعظ الله تعالى به في كتابه القرآن العظيم، فينتهي عما نهى عنه عَزَّ وجل، ويعمل بما أمر به تبارك وتعالى. وأما غير المتقي فليس هو كذلك. لأنه متجرئ على الحق. مما يفيد ويبين منزلة وأهمية التقوى. وأن من أراد أن يعرف ويقيس تقواه فلينظر مدى تفاعله وتجاوبه واتعاظه بما وعظ الله تعالى به، فأين هو منها. فالالتزام بشريعة الله تعالى معيار للتقوى، كما أن دلالة التقوى متحققة في الالتزام بشريعة الله تعالى.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾
فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا
تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ

وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة ما يتعلق بأوصاف القرآن الكريم التي هي قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ينتقل إلى المزيد من تقرير ما سبق، بقوله عزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى أنار السماوات والأرض بنور كمال تدبيره وهدايته لخلقه، فلا ظلام للجهل في كون نوره سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وهو استهلال مدح وبيان، وتعظيم لعظمته تبارك وتعالى. ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى أن: المراد المبالغة في وصفه سبحانه وتعالى، بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه، كما يقال: فلان نور البلد. والنور هو الضياء، وهو الذي يبين الأشياء، ويُرِي الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على الله تعالى على سبيل المدح والثناء، ولكونه أوجد الأشياء المنورة، وأوجد أنوارها ونورها[١] فهو الهادي لكل من في السماوات والأرض، فإنهم بنوره إلى الحق يهتدون، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: الله سبحانه هادي أهل السماوات وأهل الأرض. وعنه أيضاً: يدبر الأمر فيهما. وقال آخرون عني به النور والضياء. فعن أبي بن كعب: بدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن[٢] وقال السدي: فبنوره أضاءت السماوات والأرض[٣] فشملت دلالة الأقوال: النور الحسي، والمعنوي، فالحسي من الهداية والتوفيق والخلق والإيجاد والتدبير، والنور المعنوي، الذي هو محل المدح والثناء. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: الله تعالى نور من جهة المدح، لأنه أوجد الأشياء، ونَوَّر جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها[٤] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وبيان هذا: أن النور في اللغة: الضياء. وهو الذي تصل به الأبصار إلى مُبْصِراتِها، فورد النور مضافاً إلى الله تعالى، لأنه هو الذي يهدي المؤمنين، ويبين لهم ما يهتدون به، فالخلائق

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٢/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٥/١٧–٢٩٧)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠١/٣)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٠/١٢)

بنوره يهتدون[١] وبهذا يتبين معنى قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي جمع كمال المدح، وكمال الحقيقة التي استنارت الدنيا بنور ربها من كل وجه وفي كل شأن.

ثم ينتقل السياق العظيم إلى بيان فيض نوره تبارك وتعالى على خلقه بأن ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ فإن مَثَلَ ما أنار به الحق بهذا التنزيل في بيانه كمشكاة فيها مصباح. والمشكاة: كل كوة لا منفذ لها، وهو التجويف الذي يكون في الحائط أو الجدار. ومن مميزات المشكاة أنها تجمع نور المصباح حتى يكون أكثر صفاء وقوة في الإضاءة. وقال البعض: هذا مثل ضربه الله لقلب محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: عني بالمشكاة: صدر المؤمن، وبالمصباح القرآن والإيمان، وبالزجاجة قلبه. وقيل: هو مثل للمؤمن، غير أن المصباح وما فيه مَثَلٌ لفؤاده، والمشكاة مَثَلٌ لجوفِه. وقيل: ذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن. ورجح ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى من تلك الأقوال، قول من قال: أنه عُنِيَّ به القرآن: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم، فآمنوا به، وصدَّقُوا بما فيه، في قلوب المؤمنين، مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي تكون في الجدار التي لا منفذ لها، وإنما جُعِل ذلك العمود مشكاة، لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى، فهو كالكوة التي في الحائط التي لا تنفذ، ثم قال ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ وهو السراج، وجعل السراج، وهو المصباح، مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات. ثم قال ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ يعني أن السراج الذي في المشكاة، في القنديل، وهو الزجاجة، وذلك مثلٌ للقرآن[٢] والمصباح يعبر عن الضوء. وفي تحديد وتعيين المصباح بأنه في زجاجة، لأن الزجاجة تعطي قوة للضوء أكثر وأشد من غيره.

وهذا الاختلاف في الدلات والأوجه هو اختلاف تعاضد، وليس اختلاف تضاد، وهو من سعة عطاء القرآن الكريم للدلالات المتعاضدة التي تستوعب شمولية المراد بسياق واحد. وسبب هذا الاختلاف هو الضمير في قوله تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فحرف الهاء يعود إلى الله تعالى: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مثل هداه في قلب المؤمن. وقد يعود الضمير إلى المؤمن. فتقديره: مثل نور المؤمن. قاله أبي بن كعب. وكان أُبي وابن مسعود يقرآن **(مثل نور المؤمنين)** وقد يعود الضمير إلى محمد صلى الله عليه وسلم. قاله كعب. وقد يعود الضمير إلى القرآن، قاله سفيان[٣] فمنشأ هذه المساحة من الدلالات هو عودة الضمير الذي جعل السياق

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٦٠/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٩٧/١٧-٣٠٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٦٠/٥)

يعطي هذه الشمولية، التي تدل على عمق السياق في كتاب الله تعالى. فقد يعطي أكثر من دلالة بلفظ واحد، ومع هذا تكون جميعها صحيحة الدلالات، مما يدل على غزارة المعاني في سياق القرآن الكريم، وهذا نوع من الإعجاز في كتاب الله تعالى.

ففيما ورد آنفاً من تنوع دلالات هذا المثل، من كون المقصود به القرآن الكريم، أو النبي صلى الله عليه وسلم، أو المؤمن، والإيمان، فإن جميعها حقائق يستوعبها رحابة الآية الكريمة، لأن الله تعالى وصف كتابه بالنور، ووصف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالنور، ووصف الإيمان بالنور. فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن أوجه هذا المثل، بأن فيه ثلاثة أقوال: الأول: أنه شبَّه نور محمد صلى الله عليه وسلم بالمصباح المنير. والثاني: أنه شَبَّه نور الايمان في قلب المؤمن بالمصباح، فالمشكاة قلبه، والمصباح: نور الإيمان. والثالث: أنه شبَّه القرآن بالمصباح، يُستضاء به، ولا ينقص. والزجاجة: قلب المؤمن، والمشكاة: لسانه وفمه[١] والمتأمل يجد أن جميع هديه تبارك وتعالى هو نور، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ فهديه كله نور، فيخرجهم به من الظلمات إلى النور. وأما وصف القرآن الكريم بالنور فقوله تعالى في سورة التغابن ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فأما النور المبين فهو القرآن، قاله قتاده[٢] وقال السعدي رحمه الله تعالى: وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر[٣] وأما في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى في سورة المائدة ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾ فقد وصف رسوله صلى الله عليه وسلم بالنور، في قوله عَزَّ وجل ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ أي القرآن العظيم. قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾: يعني بالنور محمداً صلى الله عليه وسلم، الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومَحَقَ به الشرك، فهو نور لمن استنار به، يبين به الحق، ومن إنارته للحق بيانه

(١) المرجع السابق (٥/٣٦٢-٣٦٣)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٢٧)

(٣) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٤٤٦)

لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب[١] فجميع هديه تبارك وتعالى نور، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فجميع ما جاء من عند الله تعالى هو نور، فشريعته نور، والقرآن نور، وآياته الكونية نور، ومحمد صلى الله عليه وسلم نور، يضيء للناس ما يبين لهم به الحق من الباطل، والخير من الشر. فيزيل بنور هديه كل ظلام، وجهل، وضلال. فهي تستوعب جميع الأوجه من غير تعارض، مما يبين قوة وإعجاز بلاغة القرآن الكريم، إذ يعطيك السياق مجموعة من الأوجه والدلالة الحقيقة التي تتضافر وتتعاضد ولا تتعارض.

ثم وصف تبارك وتعالى الزجاجة وما بداخلها من النور، وما يخرج منها من الضوء بالكوكب الدري ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أي: إضاءته مشابهة لإضاءة الكوكب الدري. فالكوكب هو النجم، والدري هو الساطع نوره في شدته، وبروز نوره على غيره، بما يفيد صفاء بياض النور، وقوة لونه الذي يدفع به الظلام ويبدده.

ثم يصف سبحانه وتعالى مصدر موقد هذا المصباح بأنه ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ﴾ فالذي يُقوي ويُبقي نور هذا المصباح مضيئاً متوهجاً هو ذلك الزيت الذي يأتيه من هذه الشجرة، فيمده بالتوقد، والذي مصدره الشجرة المذكورة ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ﴾ وفي استخدام الفعل المضارع المستمر ﴿يُوقَدُ﴾ ما يفيد قوة المصدر المستمر، الذي لا ينقطع ولا يضعف، ولا ينضب من كثرة وقوة الضوء، فهو مَوقِدٌ لا يضعف، ولا ينقطع، ولا يقل تدفقه، ليفيد ثبات الضوء واستمراره، وهو مثل يرتقي بعقل الْمُخَاطَب، وبتصوره للإيمان، ولهداية الله تعالى، ولنعمة القرآن الكريم، وما يأتي منه من الخير الذي لا ينقطع، ولا يضعف عمن آمن وعمل به. ونعمة الرسول ورسالته صلى الله عليه وسلم، وفي إسناد الوقود للشجرة، دلالة على ضخامتها وقوتها. ثم يبين سبحانه وتعالى المزيد عن حقيقة هذه الشجرة، من خلال كشف صفتها التي يثبت بها قوتها وميزتها، فإنها ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ قد زكاها ربها سبحانه وتعالى بأنها قد حظيت ببركة من الله تعالى، فاستحوذت على الخير المتصف بالنماء، والزيادة، والعطاء والقوة. وهو كذلك القرآن الكريم، ودين الله عَزَّ وجل، ونور المؤمن وسلامة منهجه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومنهجه تبارك وتعالى الذي لا ينضب ولا يتوقف عن مد وإعطاء المؤمنين ما يحتاجون إليه.

ثم بعد تحديد وتعيين ما منح الله تعالى به هذه الشجرة من خاصة البركة، التي هي مصدر وقود المصباح، جاء وصف الشجرة من حيث النوع، فينتقل بها الوصف من الجنس العام للشجرة إلى نوعها، إذ أنه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٦٤/٨)

سبحانه وتعالى لم يحدد نوعها ابتداء، بل حدد جنسها فقط، بأنها شجرة، ليزداد عامل التشويق في معرفة نوع هذه الشجرة المباركة. فيقول تبارك وتعالى ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ فإنها زيتونة، فيقرر تبارك وتعالى نوعها، بأنها شجرة من فئة أشجار الزيتون، التي يعرفها الْمُخَاطَب، ويعرف ما اتصفت به من بركة ثمرها، وزيتها الذي يستخدم طعاماً وإداماً، ودواء، ووقوداً، فإنها شجرة كثيرة النفع في جميع ما ينتج عنها. مما يدل ويؤكد قوة إضاءة ونور المصباح، الذي وقوده من شجرة ليست كبقية الشجر، فإن مصدرها قد اتصف بخصائص متعددة، يُقَوِّي بعضها بعضاً.

ثم يتدرج الوصف لهذه الشجرة المباركة التي أصبحت وقوداً مباركاً لذلك المصباح الذي هو مثل القرآن العظيم، ومثل للإيمان، ومثل للمؤمن، ومثل لرسوله صلى الله عليه وسلم، ومثل لهداية الله تعالى، فإنها شجرة ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فهي شجرة خاصة، لا تنتمي إلى المشرق، ولا تنتمي إلى المغرب، ليدل على خصوصيتها، بأنها عالية المقام والمكان، فليست كبقية الزيتون، خاصة وأن وصفها جاء مفرداً ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ ليتبين انفرادها وتميزها، فليس الوقود من مجموعة من شجر الزيتون، بل إنها شجرة وحيدة، لا مثيل لها، لا في بركتها، ولا في موقعها ولا مكانها من بين الشجر. وكذلك يحمل معنى ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بأنها كما قال عكرمة رحمه الله تعالى هي: الشجرة تكون في مكان، لا يسترها من الشمس شيء، تَطْلُعُ عليها، وتغرب عليها[١] مما يدل على قوة غذائها، ومن ثَمَّ قوة زيتها، لِمَا يُعْرَف من أثر الشمس على نماء وقوة الشجر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي شجرة وسط الشجر، ليست من الشرق، ولا من الغرب. وقال آخرون: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا[٢] فدلت هذه الأوجه من الدلالات على انفرادها وتميزها على أي وجه أخذنا به. بل ليس هناك ما يمنع من إن تكون جميع الأوجه متمثلة فيها. وفي هذا بيان دقيق لقوة مصباح ونور الإيمان، والمؤمن، وهدي الله تبارك وتعالى، ونور هديه صلى الله عليه وسلم، ونور القرآن العظيم، فهو تشبيه عميق في دلالاته ومعطياتها. ومفاده: فيا أيها الإنسان عليك التمسك بنور الله تعالى، فإنه نور عظيم، ترى به الحقائق واضحة بائنة، فتعرف به الخير من الشر، والحق من الباطل، والفاسد من الصحيح القويم، وبالتالي يُوصِلُك نور الله سبحانه وتعالى إلى ما تستنير به حياتك في الدنيا، وتستنير به حياتك في الآخرة، ونعيمها المقيم.

ثم يتدرج السياق العظيم في وصف هذه الشجرة العظيمة إلى بيان قوة وندرة زيتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ فإن زيت هذه الزيتونة يوشك ويكاد أن يضيء بنفسه من حُسنه وصفائه من غير نار ﴿يَكَادُ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١١/١٧)

(٢) المرجع السابق (٣١٢/١٧)

﴿ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ ﴾ فكيف سيكون نوره إذا مسته نار. فكيف يكون إذاً نوره فيما لو لامسته النار، فإنه يكون منه أمراً عجباً. ثم يزداد الوصف بأنه ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾ يضيء بعضه بعضاً، وأيضاً يُضيء بعضه على بعض، فالزيت نور، والنار نور. فالزيت في حد ذاته نور، فإذا مسته النار أصبح نور على نور. قال أبو سليمان الدمشقي: نور النار، ونور الزيت، ونور الزجاجة[١] ليتأكد بذلك قوة نوره، وقوة إضاءته، المبددة لكل ظلام أمامه، فليس هناك ظلمة تستطيع أن تقف أمامه، أو تحجبه عن غيره. وفي هذا ارتقاء بمنزلة ومكانة هذا الزيت الذي ينعكس وصفه على المصباح، والذي هو القرآن والإيمان، والمؤمن، وهدي الله تبارك وتعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم. فكذلك براهين وحجج الله تعالى وهديه، ووسائل هديه كأنور ما يكون، فهي متتالية ومتعاقبة ومتضافرة في بيانها ووضوحها، وكل واحد منها كالنور يتلو النور فيعضده ويقويه. فكل من تغذى بالقرآن وبهدي الله تعالى فإن قلبه يلتصق بالإيمان الذي يشع نوراً، فيكون حال هذا الإنسان نور يضيء له دروب الحياة، التي توصله إلى جنات النعيم. مما يدل على قوة حجج الله تعالى، وبراهينه، وأنها ساطعة بقوة ما فيها من الحق الواضح، كوضوح نور المصباح لمن يريد أن يسلك الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا متاهات له. وبالتالي فإن نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم نور يُستضاء بهديه، فقد جمع الله تعالى فيه نور القرآن، ونور الإيمان، ونور الهداية والتوفيق، ونور الرحمة والشفقة ومكارم الأخلاق. فنور النبوة على نور القرآن، على نور دين الله تعالى، على نور الإيمان، على نور المؤمن، أنوار بعضها على بعض في تتاليها وقوتها، وقوة إضاءتها، وقوة وضوح منهجها.

ثم يذكر تبارك وتعالى هدايته وتوفيقه ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ يوفق الله تعالى للاهتداء بهديه من يشاء من عباده. فيوفق تبارك وتعالى من عباده للاهتداء بكتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وشريعته من يشاء، فإن المشيئة لله تعالى، فإذا شاء كان ما يشاء، وإذا لم يشأ لم يكن ذلك الشيء، والتي منها الاهتداء. مما يبين عظيم سلطانه عَزَّ وجل، وكمال إرادته، وأن ليس لأحد مشيئة منفردة إلا وهي تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء أمضاها، وإن شاء أوقفها. مما يبين أهمية الدعاء، وأهمية الالتجاء إليه سبحانه وتعالى لتحصيل الهداية والتوفيق والفضل والخير، والتثبيت على ما هداه إليه من الحق عَزَّ وجل. وفي هذا بيان لدلالة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلا قدرة لأحد إلا بتوفيقه جَلَّ جلاله. مما يدل على افتقار العبد لربه ولهدايته وتوفيقه، وأنه عَزَّ وجل هو المتفرد بتدبير خلقه، فلا يكن إلا ما يشاء. ولا هداية ولا توفيق إلا بهدايته ومشيئته. فالعبد مأمور بالاتباع، ولن يكون إلا ما يشاء الله تعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٦٢/٥)

ثم يبين ويؤكد سبحانه وتعالى عظيم ما وعظ به الناس من الأمثال ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: ويوضح ويجلي سبحانه وتعالى الحقائق بالأمثال التي يضربها للناس، فيقربها للعقول، حتى تستوعبها الأفهام، ويسهل إدراكها على الإنسان، كمثل نوره الذي ضربه الرحمن سبحانه وتعالى للإنسان، ليفهم ويدرك فضل نور الله تبارك وتعالى من الحق والقرآن والإيمان، وشريعة دينه، ونور نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فيبينها ويقربها بالصورة من المحسوسات التي يدركها ويتصورها عقل الْمُخَاطَبين به، وهم عموم الناس. وهذا من كريم لطفه تبارك وتعالى بالناس، وعظيم إعجاز وسائل تبليغه وتفهيمه لعباده، وتقريب فهم الشيء لهم على أحسن وأجود ما يكون. فقد بلغ كمال الغاية في البيان والإفصاح والإخبار. بما تنتفي معه حجة الجهل من الإنسان. بل عَيَّن وحدد أن الْمَعْنِيُ به جنس الإنسان ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ ليفيد تأكيد الاهتمام والعناية بهذا المخلوق. مما يتطلب من هذا الإنسان أن يشكر إنعام ربه عليه بهذه العناية والاهتمام. فَيُثني عليه، ويطيعه، ويهتدي بهديه عَزَّ في علاه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال علمه ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، فيستقصي علمه عَزَّ وجل كل شيء وشأن، فلا يغيب عنه ما يغيب عن المخلوقات. بما يفيد كمال علمه وإحاطته تبارك وتعالى بكل شيء، فلا يفوت ولا يغيب عنه شيء البتة. مما يستدعي من الإنسان أن يحذر من تصرفاته، فإنه لا يغيب منها شيء عن الله تعالى، فهو مطلع عليه، ومجازيه عليها، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر.

وبعد أن ضرب الله تعالى المثل الذي استوعب نوره من الخير والحق الدنيا بأكملها، ومنها الإنسان الذي يؤمن به، فقد أعقب ذلك إظهار وإبراز مكان ذلك المصباح الذي يُذكر فيه الرَّب سبحانه وتعالى، بالتسبيح والتنزيه والعبادة ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية، المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، التي هي بيوته التي يُعْبَد فيها ويُوحَّد[١]

فابتدأ البيان الكريم بتعيين المكان ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ لإظهار أهميتها وتأكيد أنها المقصد الذي تعني به الآية الكريمة. وهي جملة مكونة من جار ومجرور ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ يتعين بها المكان الذي يشمله إضاءة المصباح. أو التي تُرفع ويذكر فيها اسم الله تعالى. ولم يقل سبحانه وتعالى: في مساجد، بل ذكرها بلفظ البيوت، لأن

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٣/٣)

البيت هو المكان الذي تأوي إليه النفوس طلباً للراحة والأنس والسكينة مما ينالها من العناء والمشقة. ولتستوعب المساجد لأنها بيوت الله تعالى، التي تأوي إليها النفوس لتتغذى بالإيمان والسكينة، ولتستوعب كذلك بيوت المسلمين، لأنها عامرة بذكر الله تعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معناها، وفي علاقتها وارتباطها بنور المشكاة: الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله أن تُرفع[١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي المساجد تُكرم، ونُهي عن اللغوِ فيها. وعن عكرمة رحمه الله تعالى: هي البيوت كلها[٢] وجملة ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ تفيد التخصيص، بأنها ليست جميع البيوت؛ بل في نوع من البيوت، بما يؤكد أن المقصود الأول بها هي المساجد، وإن دخلت فيها بيوت المؤمنين، لما فيها من ذكر الله تعالى. فالمقصود بها المساجد، ويدخل فيها بيوت المسلمين التي يُذكر فيها الله تبارك وتعالى.

فهذه البيوت ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي: أمر وقضى، لأن الإذن يفيد التمكين والسماح بأن ﴿ تُرْفَعَ ﴾ أي: ترفع بالتعظيم والإجلال لشأنها ومكانتها، وتشييدها وبنائها، وتنظيفها، وتنزيهها عن كل درن، ووسخ، ولغو، من الأقوال والأعمال والأشياء الحسية التي لا تليق بالمسجد، كالأوساخ، والحديث في البيع والشراء، وما لا يحسن قوله أو فعله في المساجد، أو إدخال وجلب ما لا يليق بها، بل شاملة لكل ما يؤذي الذين يعمرونها بالصلاة والذكر والاعتكاف، حتى من أكل ثوماً أو بصلاً فإنه يلزمه أن يتنزه عن دخول المسجد، لأنها عامرة بذكر الله تعالى، الذي لا يليق به إلا الرائحة الزكية، لأنها مكان لذكر الله تعالى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ بعموم الذكر المشتمل على اسمه جَلَّ جلاله، من تلاوة القرآن الكريم، والصلاة والتسبيح والتهليل والتكبير، وتوحيده. وفي هذا التخصيص والتعيين باسمه عَزَّ وجل ما ينفي الذكر بغير اسمه تبارك وتعالى، ليفيد نفي الشرك، والألفاظ البدعية والشركية، وإبقاء وحصر الذكر باسمه سبحانه وتعالى، لإفادة إخلاص العبودية له جَلَّ في علاه.

ثم بعد بيان وجوب ذكره سبحانه وتعالى على وجه العموم ينتقل البيان إلى تخصيصه وإفراده عَزَّ وجل بالتسبيح في وقتين مهمين من بين جميع الأوقات ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ أي: أول الوقت، وآخره. والتسبيح هو تنزيه الله جَلَّ جلاله عن كل سوء من النقص والعيوب والتشبيه، وهو تبعيده عَزَّ وجل عما لا يليق بجلاله وعظمته وكبريائه، وعظيم سلطانه وألوهيته وربوبيته. أي يُنَزَّه فيها بالتسبيح والذكر والعبادة، والصلوات، لأن الصلوات مشتملة على التسبيح، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل تسبيح في القرآن

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٣١٥)

(٢) المرجع السابق (١٧/٣١٦-٣١٧)

فهو صلاة[١] ثم خص سبحانه وتعالى وقتين فاضلين، هما ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ والغدو هو أول الوقت وأبكره ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ جمع أصيل، هو آخر النهار، فيكون الذكر لله تعالى ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وهذا موعد ووقت مخصوص من بين سائر الأوقات، لبيان أهمية هذين الوقتين وفضلها للذكر من بين سائر الأوقات، وإلا ذكر الله تعالى يكون في جميع الأوقات، وهذين الوقتين أخص الأوقات لفضلها بما فضلها الله تعالى، وأمر بذكره فيها، وخاصة ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ الذي هو: أول النهار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ آخر النهار. ليدخل في ذلك من باب أولى الصلوات التي في هذه الأوقات. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: أراد الصلاة المفروضة، فالغدو صلاة الصبح، والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، لأن اسم الآصال يجمعها[٢] فدخول الصلوات من بين عموم التسبيح أولى.

ومن دقائق البيان حصر وقصر التسبيح له وحده لا شريك له ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ مما يفيد بطلان التسبيح لغيره، وبطلان الشرك، ونفيه، ووجوب توحيد الله تعالى بالعبادة، وإرادته وحده بما هو له عَزَّ وجل. وقبلها قوله تعالى ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ وليس غيره جَلَّ في علاه، مما يبين أنه المخصوص بذلك عَزَّ وجل. كما يفيد تخصيص المساجد للعبادة، وليس لغير ذلك، وأن تكون البيوت نقية من الشرك والبدع، ومن الأعمال والألفاظ، والاعتقادات الباطلة. وكذلك من دقائق البيان أن في قوله سبحانه وتعالى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أنه لم يُذكر فاعله، فهو فعل مضارع مبني على عدم ذكر الفاعل الذي هو الْمُسَبِّح، ليشمل تسبيح المؤمنين وغيرهم من المخلوقات، لأن كل المخلوقات تسبح لله تعالى كما ورد في سورة الإسراء ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ فبعدم ذكر الفاعل شمل جميع المخلوقات. وهذا من دقائق البيان في القرآن الكريم. ومن دقائق البيان أيضاً إفراد أول الوقت ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ بينما جمع آخر النهار ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ لأن ليس في أول الوقت إلا صلاة الفجر، وفي الآصال بقيت الصلوات المفروضة. والآصال جمع أصيل، ومفردها أصيل، وهي أوقات متعددة، تبدأ من بعد ميول الشمس عن كبد السماء، فاشتملت على صلاة الظهر والعصر، وصلاة العشاءين كما ذكر سابقاً الإمام القرطبي رحمه الله تعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧/٣٢٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٨٢)

ثم يتدرج البيان إلى تعيين القائمين بذكره، بأسلوب المدح الذي يبين قوة إخلاصهم ومثابرتهم على ذكر ربهم جَلَّ شأنه ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يمدح الله تعالى في هذه الآية الكريمة صنف من الرجال، وهم الذين اتصفوا بقوله تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ فسماهم رجالاً، للتخصيص والإظهار والتعيين لهم من بين جنسهم، لأنهم المعنيون بالتجارة، وقوة جاذبيتها ولهوها لهم، كما أنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ فلا تشغلهم أعمال التكسب، والرغبة في تحصيل المال عن ذكره جَلَّ في علاه. وفي تخصيص التجارة من بين المهن، لجاذبيتها في إشغال الذهن بالترقب للمزيد من التحصيل والتكسب، أو انتظار تصريف ما لديه من مبيعات، لأن الاشتغال بها يجذب شاغلها نحو التحصيل، لتعاقبه فيها، ولكثرة المتدافعين والمتنافسين على سلعها بيعاً وشراء، وأخذاً وتملكاً وعطاء. فكثرة تعاقبهم تُغري وتلهي المشتغل بها عما عداها.

والتجارة كل ضرب في الأرض ابتغاء ورجاء فضل الله تعالى. ثم خص سبحانه وتعالى البيع ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ فذكر الخاص بعد العام، فالتجارة أعم، والبيع أخص، لأن البيع متعلق بطمع ورجاء الإنسان في تصريف سلعته بالبيع. وبالرغم من شدة جذب التجارة والبيع للرجال إلا أن هؤلاء لا تشغلهم ولا تغلبهم تجارتهم وبيوعهم عن ثلاثة أشياء، متعلقة بعبادة الرحمن الرحيم: الأول: لا تشغلهم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن القيام بحق الله تعالى، وذكره بأسمائه الحسنى بجارحة اللسان والقلب. قال قتادة رحمه الله تعالى: القيام بحق الله تعالى. وقال أبو سليمان الدمشقي: عن ذكر الله باللسان(١) كما يفيد ذلك أنهم يتفادون ويَتَوقَّون الحرام في تجارتهم وبيعهم، فإن ذكرهم وتذكرهم لله تعالى يجعلهم يَتَوقَّون ويتفادون الوقوع في الغش والتدليس، والتغرير، وجميع ما يتعلق بحقوق البيع وواجباته الشرعية.

والثاني: لا تشغلهم تجارتهم ولا بيعهم عن إقامة الصلاة في وقتها ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فلا تشغلهم تجارتهم وبيوعهم عن إقامة الصلاة في وقتها، وأدائها بحقها، وتمامها من الخشوع والسكينة والاطمئنان، وبالتالي لا يستعجلون فيها بتخفيفها، أو بما يخل بكمالها وتمامها، بالرغم من مجاذبة التجارة والبيع للنفس البشرية، فإنهم يؤدونها بطمأنينة كما فرضها الله تعالى، وأداها رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يدل على مقاومتهم لنفوسهم، وسيطرتهم على طمع النفس للمأمول، وخوفها من فوات المرغوب وما ترجوه. لعلمهم أن الذي عند الله تعالى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٦٥/٥)

هو خير مما هم فيه من التجارة والبيوع، وتحصيل منافع الدنيا، فمنافع الآخرة هي المقصد والمطلب الأول عندهم، فلا يقدمون عليها شيئاً من مقاصد الدنيا ورغبات النفس.

والثالث: دفع الزكاة لمستحقيها ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالزكاة المذكورة، هي: المفروضة. وقيل: المراد بالزكاة طاعة الله والإخلاص[١] فعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص[٢] فهي على الأصل الزكاة المفروضة، وتستوعب كذلك معنى: إخلاص الطاعة لله. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: قيل: الزكاة المفروضة، قاله الحسن. وقال ابن عباس: الزكاة هنا طاعة الله تعالى والإخلاص، إذ ليس لكل مؤمن مال[٣] فلا تعارض بين القولين، لاستيعاب لفظة الزكاة المعنين، وسواء زكاة البدن، أو زكاة المال إن وُجِد. وسواء قُصد بها الزكاة أو الإخلاص، فلم تكن عبادتهم ولا ذكرهم خوفاً من أن يقال عنهم، أو رياء، بل كان طاعة محضة لله تعالى، فحق لهم المدح والثناء من الله تعالى بما اتصفوا به من هذا الوصف والتزكية من ربهم تبارك وتعالى. مما يعطي درساً للمؤمنين بأن يكونوا من هذا الصنف الذي امتدحه الله تعالى وأثنى عليه. وجعله قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، اللهم اجعلنا منهم بفضلك وتوفيقك يا رب العالمين.

وهي قاعدة عظيمة بأن يتمثل المؤمن بها أمام مشاغله، فكلما شعر بأن هناك ما يشغله، قال لنفسه ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فإنها قوة يدفع بها المؤمن نفسه للمبادرة في الطاعة. كما كان من أبي الدرداء رضي الله عنه، حيث قال: إني قمت على هذا الدرج، أبايع عليه، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٤] فالمحفز لأبي الدرداء هو أن يكون منهم. ليكون مثالاً في التسابق على أن يكون ممن مدحهم الله تعالى بهذا الثناء العطر.

ثم ذكر تبارك وتعالى القوة الدافعة لهم في ترك ما يحبون وما تعلقت به النفوس ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فلقوة إيمانهم فإن ما هم مشتغلون به من التجارة والبيع لم يُغَيِّب عنهم ذلك

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٥/٤)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٤/١٧)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٥/١٢)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٦/٣)

المشهد العظيم يوم القيامة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ فخوفهم من ذلك اليوم، الذي هو يوم القيامة يدفعهم للطاعة وسرعة الاستجابة، حين ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ حين تتقلب القلوب في ذلك اليوم من شدة الخوف، بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك. وتضطرب الأبصار، من هول ما ترى، فتتجاذبها المناظر، ولا تدري من أي ناحية تُؤخذ، فلا يرون إلا يقيناً وحقيقة أمامهم من أمور الآخرة التي اختلفت عن الدنيا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب من هوله، بين طمع بالنجاة، وحذر بالهلاك ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي ناحية يؤخذ بهم. ذات اليمين أم ذات الشمال؟ ومن يُؤْتَوْن كُتُبَهم أمن قِبل الأيمان أم من قِبَل الشمائل؟ وذلك يوم القيامة[١] فمن كان مؤمناً ازداد بصيرة بما وعد الله تعالى به، ومن كان غير مؤمن أيقن بحقيقة ما كفر به وأنكره. فمن كان ذلك مرسوماً في ذهنه لم ينشغل بأي شيء عن طاعة الله تعالى.

ولما أخبر الله تعالى عن دواعي المحافظة على ذكره تعالى وعلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وهو الخوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، والذي يمثل الرهبة من ذلك اليوم، يذكر سبحانه وتعالى داعي الرغبة فيما عند الله تعالى من حُسن الجزاء، وكرم المقام الذي أعده للطائعين، فقال تعالى ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ليثيبهم على إخلاصهم وانقيادهم لربهم سبحانه وتعالى بأحسن وأعظم مما عملوا من الطاعة، ومما يستحقون ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فإذا قورنت أعمالهم بالدنيا مع جزاء الله تعالى وثوابه لهم، وجدوه أحسن وأعظم، فعملهم بالطاعة مؤقت بزمن الحياة الدنيا المحدود وقتاً بعمر الإنسان، وأما جزاء الآخرة فهو دائم لا يزول، وهو فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وليس بمقدار ما كان منهم. بل ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فمن كرم الله تعالى أنه يزيدهم ويضاعف لهم الثواب؛ وحُسن المآب بأفضال من عنده عَزَّ في علاه، فهي زيادة عما يستحقونه بطاعتهم وامتثالهم لربهم تبارك وتعالى.

ثم يبين سبحانه وتعالى عظيم عطائه ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فإن الله عَزّض وجل يتجاوز في العطاء بأكثر مما يستحق العبد، وأكثر مما يتمناه ويرجوه، بل يتفضل عليه بالإنعام العظيم من غير أن يبلغ العبد بعمله ذلك العطاء من الله تعالى. وفي هذا تأكيد على الزيادة تفضلاً وامتناناً، بل إن مضمون قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يبين كرم الله تعالى، وجوده وإنعامه، إذ يعطي من غير

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢٥/١٧)

إحصاء، ولا كيل، ولا عد، ولا وزن، بما يفيد عظيم عطاء الله تعالى وكثرته، وعظيم ما عنده من الكثرة والنوع التي لا يتخيلها العبد. وفي هذا ما يستدعي النفوس المؤمنة أن تحافظ على طاعة الله تعالى، وتقديم طاعة الله عَزَّ وجل على كل الرغبات والشهوات، وعلى كل ما هي حريصة عليه في الدنيا، فإن الدنيا دار ممر، والآخرة دار مستقر، والدنيا قصيرة الزمن، والآخرة حياة لا تنقطع. وهذا يفيد أن التمسك بعبادة الله تعالى قائم على الرهبة والرغبة. الخوف من عذابه، والرجاء والأمل في كريم عطائه سبحانه وتعالى.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن تناولت الآيات السابقة خصال المؤمنين في مثابرتهم على طاعة الله تعالى، وعدم انجذابهم لما يُشغلهم عنها، وعن ما أعده الله تعالى لهم من عظيم الأجر والثواب، يُخبر الله تعالى بما سيكون من حال الكفار، بضرب مثالين عظيمين في دلالاتها، الأول: قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ فأعمال الكافرين من التبرعات والصلة، وحُسن المعاملة، وما يكون منهم من أنواع الخير، فإنها لا قيمة ولا وزن لها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ ﴾ لأنهم لم يحققوا الإيمان، وبالتالي انتفى عن أعمالهم الصالحة إخلاصها لله تعالى، فظاهرها الصلاح، ولكن باطنها انتفى منه الإخلاص لربهم وخالقهم، بينما المؤمنون يوفيهم الله تعالى أعمالهم بأحسن ما يكون، وأما الكافرون فإن ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ والسراب هو ما يراه الإنسان من وهج الشمس على الأرض، وكأنه ماء، فإذا وصل إلى مكانه لم يجده شيئاً ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ فأعمالهم تشبه السراب الذي يكون ﴿بِقِيعَةٖ ﴾ وهو: الموضع والمكان المنخفض الذي يجتمع فيه الماء، ويستقر فيه، والقيعة جمع قاع ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ يظنه العطشان المترقب للماء؛ عندما ينظر إليه أنه ماء، فاجتمع في الرائي العطش؛ مع هيئة وصورة انعكاس الشمس، فيكون شوقه وحسبانه شديد التوقع بأن ما يراه كما هو في حسبانه وطمعه وأمله بأنه ماء، فيستحث نفسه وجهده إليه حثاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ

﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ حتى إذا ورد هذا المكان، ووصل إليه، لم يجده كما هو في حسبانه، فيتبدد طمعه، وينكسر أمله، ويخيب رجاؤه، فترتعد فرائصه لحاجته الماسة لذلك الماء الذي كان في ظنه وحسبانه، حتى يروي عطشه الذي أتعبه. فاعتقاد هذا الظمآن في السراب بأنه ماء يماثل اعتقاد الكافر في أعماله الصالحة بأنها تنجيه من عذاب الله تعالى، فينظر إليها على أنها منجيته من عذاب الله تعالى، وهي سراب ليس لها وجود في الحقيقة. فإن حالهم مع أعمالهم كحال العطشان مع السراب. فلم يجد إلا ما يُخيب آماله في الوقت الذي هو أشد ما يكون إليه، لتحصيل نجاة نفسه من هلاك الظمأ. وفي هذا تصوير للحقيقة بالمثال الذي يناسبها من كل وجه.

فتحصل المفاجأة له ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ فتحصل المفاجأة العظيمة له، فبدلاً من أن يجد ما كان في ظنه وحسبانه، يتفاجأ بوجد أمر الله تعالى له بالمرصاد، حيث قضاء الله وحكمه عند حشره ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ فيوفيه حسابه وجزاءه كاملاً غير منقوص، بالعذاب المهين. وكلمة ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ تفيد الاستيفاء الكامل،غير المنقوص مما يستحق من العذاب المهين، والذي ينتفي به الظلم له، وإنما هو جزاء أعماله وافية غير منقوصة.

ثم يبين تبارك وتعالى أن محاسبة كل نفس ليس بمقاييس الناس وأفهامهم أمام الكثرة من العباد، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، فإنه سريع الحساب لعباده على كثرتهم ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فهو سريع الفصل في الحساب، وسريع المجازاة، فلا يشغله حساب عن حساب، ولا يفوت عنه أحد من خلقه، فليس كالعاجزين الذين يحتاجون تأمل وفكر وروية. فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى. وفي هذا إزالة لكل تصور عن إدراك يوم الحساب، ببيان يزيل كل تفكير قاصر. مما يفيد أن أعمال الكافرين وإن كان بعضها صالح في ذاته إلا أن حقيقتها سراب كاذب، لأنها خالية من الإيمان، وما ينتج عنه من الإخلاص والتوحيد.

ثم إن الكافر يأمل يوم الحساب أن تشفع له تلك الأعمال، ولكنها من غير إيمان، فلا قيمة لها، بل لا وجود لها، كمثل السراب، لا حقيقة لما يراه الرائي من هيئة الماء. ففي ذلك أروع البيان، وأدق تمثيل، وتصوير لما سيكون عليه الأمر قبل أن يكون. وفي هذا تحذير وإنذار قبل يوم الحساب؛ لمن أراد أن يتدارك أمره ومستقبله يوم الحساب والجزاء.

فهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال من كفر بربه عَزَّ وجل، حين جحدوا توحيد ربهم، وأنكروا رسوله صلى الله عليه وسلم، وكتابه القرآن الكريم، وأنكروا البعث. ثم يعزز سبحانه المثل السابق بمثل آخر، وهو المثل الثاني: الذي ضربه الله تعالى لكشف بطلان أعمال الكافرين، وهو قوله تعالى ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ

يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ يصف تبارك وتعالى في هذا المثل الثاني أعمال الكفار بأنها كما تم وصفها في المثل السابق، أو أن حالها كمثل ظلمات في بحر عميق، يعلو هذا البحر العميق موج، ثم من فوق هذا الموج موج آخر، ومن فوق هذه الأمواج سحاب عظيم في كثافته، فيحجب ضوء الشمس، لتشتد الظلمة. وقد أفاد حرف ﴿ أَوۡ ﴾ تقسيم صورة وهيئة تمثيل حال أعمال الكفار إلى صورتين. وهو دعم لفهم الْمُخَاطَب بمثال آخر، لتأكيد الفهم الذي يوضح الحقيقة الداعمة لما يجب أن يكون عليه الإنسان، وما يجب عليه من استثمار حياته لطاعة ربه تبارك وتعالى. وفي ذلك بيان لأهمية التوضيح، وتنويع وسائل الإفهام والتفهيم بما يحقق الهدف المقصود والمطلوب.

فبدأ المثال الثاني بأشد التصوير والبيان لحال أعمال الذين كفروا بأنها كالظلمات ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ ﴾ وهو جمع ظلمة، ليدل على تعاظم شدتها بمجموعها. فهي شبيهة بالظلمات التي يتهول بها من هو فيها، ويزداد بها حيرة وارتباكاً، وخوفاً من مجهول ما هو في هذه الظلمات التي خلت من نور التوحيد والإيمان، مما يبين أن الايمان نور، والكفر وأعمال الكافرين ظلام دامس، وبالرغم من هول الظلام وفزَعِه وهو منفرد، فكيف إذا تراكم، وكيف إذا كان موقع هذا الظلام ﴿ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ ﴾ أي: في بحر عميق القعر، وكثير الماء، فاجتمع مع الظلام الْبُعد السحيق؛ في البحر الغريق. ثم يعلو هذه الحال التي تمثل أعمال الكافرين قوة من الموج ﴿ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ ﴾ قوة من الموج، وفوقه قوة أخرى من الموج الشديد ﴿ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ ﴾ والذي يفيد تعاقب الأمواج بشكل مضطرد ومتسارع، فإن مِن شدة وتفاقم الهول: أن الأمواج من كثرة تعاقبها وسرعتها يعلوا بعضها فوق بعض. مما يفيد امتناع حصول وتسرب شيء من نور الشمس البتة، والذي يصور مشهد تفاقم الحال في أخوف ما يكون للإنسان، بل إن فوق هاتين الطبقتين من الموج سحاب كثيف يعلوهما ﴿ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ ﴾ سحاب كثيف متراكم يمنع وصول ضوء الشمس إلى الأمواج، فضلاً عن أن يتخلل وينساب إلى داخل مياه البحر، فتزداد الظلمة ظلاماً. ويزداد الفزع فزعاً، إضافة إلى فزع الإنسان أصلاً من أمواج البحر، لشدة تخويفه للإنسان، فكيف إذا كان تعاقب الأمواج فيها يعلوا بعضه بعضاً، وكيف وقد دنت السحب تلك الكثيفة من تلك الأمواج، فيزداد الظلام ظلاماً، ففي ذلك بيان لتعاظم الفزع والهلع عند هذا الكافر أمام أعماله التي تراكمت عليه كالأمواج، فأصبحت وبالاً عليه.

فحال الذين كفروا مع أعمالهم كظلمات قد اشتد سوادها، فإنه نتيجة لما سبق من ظلمة الأمواج المتعالية بعضها على بعض، مع السحاب الذي حجب نور الشمس فإن الحال قد أصبح ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ

بَعۡضٍ﴾ فإنها لم تَعُد ظلمات معدودة ومحدودة، بل إن المبالغة فيها أصبح التعدد فيها غير محصور العدد، والطبقات تتعالى إلى درجة أنه لا يرى حتى يده التي هي منه ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ حتى أنه حين يُخرج يده أمامه، فإنه لا يراها من شدة ظلام ما هو فيه.

وجملة ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ تفيد المبالغة في استبعاد أن يراها وهي جزء منه، وذلك لإظهار شدة ظلام ما هو فيه من حال الكفر الذي حجب عنه ما ينفعه، بل ليس أمامه إلا الشر وسواده وظلامه. كما هو حال من حجبت الأمواج العاتية النور عنه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها[1] وبالتالي فإن الكفر يحجب الخير الحقيقي عن الكافر. فقد تراكمت عليهم ظلمات الكفر والفساد والضلال والباطل، فأفسدت صالح الأعمال، حتى أصبح لا قيمة لها، لأن مظهرها الصلاح وحقيقتها أنها فاسدة لخلوها من ركيزة الإيمان والتصديق والطاعة لله تعالى. فإن من لم يجعل الله تعالى له نوراً من هدي كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فليس له هداية ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فإن هدايته منتفية، فليس هناك أكثر وأبلغ هداية مما جاء عن الله تعالى من الحق. وفي وهذا وصف بليغ لقوة ما جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن الكريم والسنة الراشدة، والحجج البليغة، فمن لم يتعظ ويهتد بها فليس هناك ما هو أبلغ منها ليهتدي به. فقد تعذرت هدايته، لكمال ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل. وفي هذا وصف دقيق لهديه عليه الصلاة والسلام بأنه بلغ الذروة، فمن لم يهتدي بهذا الهدي الذي تعاظم فيه البيان والحجج والبراهين إلى أقصى ما يكون، فلن يجد ما هو أكمل من هذا الهدي الكامل في كل شيء. مما يبين شدة فقر الإنسان لربه في كل شيء، وأن على الإنسان أن يبادر لربه بالطاعة والامتثال حتى يهديه للحق ويثبته عليه.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٢٤٤)

وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ ﴾

ينبه الله تعالى على عظمته وكمال سلطانه، وعظمة خلقه، وحُسن تدبيره الدال على ألوهيته وربوبيته، وأنه المعبود بحق وحده لا شريك له. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ يقرر اللهُ سبحانه وتعالى لعباده أن الكون كله يسبح ويصلي له عَزَّ في علاه. إذ تنطلق الآية الكريمة من سؤال تقريري، يقرر به جَلَّ جلاله تسبيح الكون له، ويستنكر به من لم يعلم أن هذا الكون خاضع له جَلَّ في علاه، فإن الكون كله مُتَألِّهٌ لربه سبحانه وتعالى بالتسبيح والصلاة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ ألم يبلغ علمك تسبيح الكون لربه تبارك وتعال؟ ليفيد التعجب من حال من لا يعرف ذلك من المخاطبين. وإن كان السؤال موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن سياقه يفيد العموم، دون تحديد وتعيين مُخَاطَباً بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص، بما يفيد تعظيم شأنه صلى الله عليه وسلم، وشأن البيان الكريم. فإن في إفراده ما يفيد التعميم، بأنه سؤال لكل أحد من العباد، فخاطبه الله تعالى بذاته لكل أحد، ليقيم عليه الحجة بهذا المثل المضروب منه عَزَّ ف علاه، وهذه دقة في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، وفي بلاغة بيانه، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية.

فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير التأمل. ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ ﴾ وهو تقرير بأن كل شيء من مخلوقات الله تعالى له صلاته وتسبيحه الخاص به. والسؤال هو خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، والمراد به جميع المخاطبين من الإنس والجن، إذ في توجيه السؤال للعباد جميعاً من خلال نبيه صلى الله عليه وسلم رفعة له عليه الصلاة والسلام، وبيان تقريري بأن نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم يشهد على ذلك. ليفيد التعجب من حال الإنسان الذي لم يمتثل كما امتثلت بقية المخلوقات، وليفيد التقرير بحال تلك المخلوقات، واستنكار حال المخاطبين ممن لم يوحد ويعبد الله تعالى كما أمر وشرع عَزَّ وجل.

فإن الله سبحانه وتعالى يسبح له جميع من في السماوات ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع من خلقه. وكذلك ﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ومن فيها، ومن عليها من مخلوقات كالجبال والأشجار والدواب، ثم خص الطير ﴿ وَٱلطَّيۡرُ ﴾ لخصوصيته في هيئته، وخلقته، وما خُصَّ به عن بقية المخلوقات من الطيران بين السماء والأرض، ولإفادة المبالغة في تسبيح

الطير حتى وهو طائر في الهواء بين السماء والأرض محلقاً، حين يصف جناحيه ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ أي: وهي باسطت أجنحتها، وحين رفرفتها بها، أي: حين يرفرف الطير بأجنحته انقباضاً وبسطاً وإطلاقاً، فحتى وهو منشغل بتوازنه في الهواء إلا أنه لم يترك ما أمره الله تعالى به من العبادة، فعندما يصف الطائر جناحيه حال طيرانه فإنه يؤدي تسبيحه وصلاته، وذلك في عبادة لربه تبارك وتعالى بما ألهمه وأرشده إليه عَزَّ وجل. مما يفيد أليس لكم فيهم أسوة بالانقياد والطاعة والحرص. فكيف يجب أن يكون حال الإنسان إذاً؟ وقد سخر له ما في السماوات والأرض. فإنه أوجب وأدعى لكمال الانقياد لربه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بأنه كلف وأعلم تلك المخلوقات بما هو حق له تبارك وتعالى من الصلاة والتسبيح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ فكل صنف من مخلوقاته عرف ما يخصه من الصلاة والتسبيح الذي يناسب حال المخلوق وتركيبه الذي خلقه الله تعالى عليه، من الثبات أو الحركة. ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه عالم بجميع ذلك من خلقه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فإن الله تعالى عليم بما هو قائم به كل مخلوق من الصلاة والتسبيح، فلا يخفى عليه من شأن جميع المخاليق شيء. وهذا العلم وكمال الإحاطة بعباده يفيد محاسبتهم ومجازاتهم على ما كان منهم، إن خيراً فخير، وإن شراً ومعصية فشر وعقاب. فلا يظلم ربك أحداً من خلقه، فلكل نفس ما كسبت. فالسماوات السبع، والأرضين السبع تسبح له، وتنزهه عما لا يليق به تبارك وتعالى، وكل من في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء عن خصوصية تسبيح مخلوقاته، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. فأكد عَزَّ وجل بأن كل شيء ينزه الله تبارك وتعالى بالتسبيح والحمد والثناء الذي يتناسب مع كل نوع من المخلوقات.

ثم يؤكد الله تبارك وتعالى كمال ملكه، وأن المصير والرجوع إليه سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإن ملك السموات والأرض له وحده عَزَّ وجل، وليس لغيره فيه شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده وإفراده بالألوهية والربوبية والعبادة. ثم يقرر عَزَّ وجل أن المصير إليه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع بعد الموت إليه، فإنكم صائرون إليه، وفي هذا إثبات وتأكيد البعث والنشور، والحساب والجزاء. مما يُوجِب على العباد التفكر في الكون الذي يشهد بما قرره الله تعالى في كتابه.

ثم يتدرج البيان إلى استثارة الأذهان والعقول إلى بديع تدبيره في خلقه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ يلفت الله تبارك وتعالى عقول وأذهان الْمُخَاطَبين إلى ما يرونه من مشاهد السحاب التي يزجيها ﴿ يُزْجِى ﴾ أي: يسوقها بالرياح من مكان لآخر، ألم يلفت ذلك الشأن انتباهكم إلى قدرته عَزَّ وجل، لتستدلوا به على قدرة الخالق، وقوة تدبيره، وعظيم حكمته، ووحدانية ربكم، وربوبيته، وسلطانه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ سؤال استنكار على من لا يتدبر ويستدل به على عظمة الخالق، ودقة تدبيره، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ ألم تشاهد بعينك عملية الإجزاء بسوق السحاب في حركته وانتقاله ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ ثم يجمعه بعد تفرقه في نسق بديع، ليتكون منه سحاباً متواصلا ومتراكباً ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أي: متراكماً بعضه فوق بعض، بجمعه بعد تفرقه، ووضع بعضه على بعض، حتى يصبح كالجبال من كثافته. ثم يبين سبحانه وتعالى ما ترتب على هذا الإزجاء ثم التراكم ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ فتشاهد ببصرك ﴿ ٱلْوَدْقَ ﴾ أي: المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ ينزل بخروجه من خلال ذلك التراكم العظيم الهائل من السحب المتراكمة. مما يفيد وجوب التأمل والتدبر والتفكر في نزوله، بأنه لم يُسقط السحاب سقوطاً، أو يَصُبُّهُ صباً، بل جعله ينزل على هيئة قطرات صغيرات، لا تؤذي أحداً، بل تروي الأرض والزرع من غير أذى، وترى الصغير والكبير يفرح وينتشي بهطول المطر ونزوله، ثم ينبت به الزرع، وتخضر به الأرض. فهل يكون ذلك الإنزال والتقدير من غير مدبر لهذا الغيث البديع في نزوله، وفي هيئته. وكل هذا بمقدار محدد ومعين، بحيث لا يتأذى به شيء، ثم يسوقه بلطفه وجميل تدبيره ورحمته جَلَّ جلاله من مكان إلى مكان آخر، إذ يفرقه بعد تجمعه في هيئة بديعة، فسبحان الله العظيم.

ثم يخبر ويبين تبارك وتعالى عن حالة أخرى من الانزال للمطر ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ وينزل من جهة السماء التي تراكمت فيها السحب حتى أصبحت كالجبال في هيئتها وقوة كثافتها، وعلو ارتفاعها، فينزل منها حبات من البرد المتجمد ليتساقط على الأرض. ومن جميل البيان تكرار حرف ﴿ مِن ﴾

ثلاث مرات. قال بعض النحاة: أن الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس[١] فالأولى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإفادة الابتداء، بأن نزوله من علو، ولفت النظر للارتفاع، وما يتبعه من تأمل. والثانية ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ من جبال في السماء، لإفادة أن البرد من بعض الجبال من السحب، وليس من جميع جبال السحب التي في السماء، وفي هذا لفت الانتباه أنه على كثرته إلا أنه من بعض تلك الجبال، فكيف لو أنزله من جميع جبال السحاب التي في السماء، لينتبه الْمُخَاطَب إلى تدبير ورحمة الله تعالى، وأن هذا التدبير لا يمكن إلا وأن يكون من مدبر هذا الكون الذي هو رب الكون ومالكه والمتحكم فيه برحمته وعظيم سلطانه، ودقة تدبيره. فكانت ﴿مِن﴾ الأولى لازمة للثانية في تحديد المنطلق والابتداء. وأما الثالثة ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ لإفادة الجنس، بأنه من جنس البرد وليس من جنس حبات المطر، فهو مختلف عن المطر من حيث جنسه، فهو من مكونات الماء المتجمدة، بينما المطر من مكونات الماء السائلة. ليلفت الانتباه إلى الفرق بينهما؛ بالرغم من أن جميع حبات المطر وحبات البرد من جبال السحب التي في السماء، فمن دبر هذا وهذا، وأخلف وغاير بين هذا وهذا، إنه الله سبحانه وتعالى المدبر لهذا الكون العظيم. إذاً أفلا تشكرونه وتعبدونه، وتوحدونه، وتطيعونه عَزَّ في علاه.

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالى مواقع نزول هذا البرد، وحكمته ومشيئته في نزوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيكون إصابته نقمة، وصرفه نعمة[٢] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء، لما فيه من نثر ثمارهم، وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ويصرفه عمن يشاء[٣] ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيصرف وقوعه بمنعه، ليكون صرفه ومنعه نعمة منه تبارك وتعالى على من صرفه عنه. وفي كل ذلك حكمة منه جَلَّ في علاه. فمن تأمل أدرك أن إدارة هذا الكون من خالقه، وأنه لا خالق له إلا هو سبحانه وتعالى، وأن له الحكم فيمن يصيبهم به، وفيمن يدفعه عنهم، فإن لله تعالى الحكمة البالغة، والمشيئة النافذة.

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالى ما يتعلق بالبرق الذي يبرق في السماء من بين أطراف السحاب ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يوشك ضوء برق السحاب من شدة قوته أن يخطف الأبصار من شدة لمعان

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/٣) وذكر ذلك أكثر المفسرين.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/٣)

ضوئه إذا نظرت إليه. مما يوجب التدبر والتأمل والتفكر فيما لفت الله تعالى إليه العقول من تدبيره المحسوس والمشاهد بمختلف الحواس. فإن التدبر في أحداث الكون يُقرر في قلب من تدبرها وجوب الإيمان برب هذا الكون، وتوحيده سبحانه وتعالى. وأنه جَلَّ جلاله لطيف بعباده، وأنه عظيم الإفضال، وكثير العطاء جَلَّ في علاه. فكل شيء في الكون يدل على الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن ساق الله عَزَّ وجل لعباده الأدلة العلوية على ألوهيته وربوبيته ووحدانيته ينتقل بالمخاطبين إلى دليل زمني يعايشه الناس، وهو في تتابع عجيب ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ألم تتأمل في تعاقب الليل والنهار ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يتصرف فيهما بدقة لا تنقطع، فيعاقب بين الليل والنهار في تتابع وتعاقب دقيق، إذ يأتي الليل ويغيب النهار، ويأتي النهار ويغيب الليل، في تتابع دقيق، بل ويزيد من هذا في هذا، وينقص من هذا ويزيده في الآخر؛ وكل ذلك في غاية من الدقة والاتقان. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ إن في هذا الشأن من تقليب الليل والنهار لدلالة لأهل العقول والبصائر على عظيم قدرة الله تعالى، التي توجب عليكم طاعته سبحانه وتعالى، وإفراده بالعبادة التي تُثْبِتُ توحيدكم له عَزَّ وجل.

ثم يتدرج سبحانه وتعالى في البيان إلى لفت الانتباه نحو بديع صنعه في الدواب التي يشاهدها الإنسان في حياته، بل ويتعايش معها ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ فإن الله تعالى خلق كل جنس ونوع من الدواب التي تدب على الأرض من ماء ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ﴾ وذكر الشوكاني وبعض أهل التفسير رحمهم الله تعالى: أن معنى ﴿ مِّن مَّآءٖ ﴾ من نطفة، وهي المني. كذا قال الجمهور، وقيل: في الآية تنزيل الغالب منزلة الكل[1] والحقيقة أن المقصود ليس أول الخلقة، بل مسيرة التناسل، وهو الذي يتناسب مع قول الجمهور. وبالرغم من ذلك إلا أن هذه المخلوقات مختلفة في تكوينها، وصورتها، وهيئة مشيها، وسيرها على الأرض، على الرغم من وحدة جنس مادة الماء الذي هو أصل لخلقتهم، وهي النطفة إلا أن الجميع مختلف من أوجه كثيرة وعديدة. ليستثير في الذهن، قدرة الله تعالى الذي دبر هذا التدبير العجيب، فإن ذلك التدبير يقود إلى وحدة وعظمة الخالق جَلَّ جلاله. فأين عقولكم من ذلك الخلق العظيم؛ في تفاوته، وتباينه، مع وحدة جنس مادته.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٢/٤)

ومن جميل البيان ودقائقه ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى: من تنكير الماء ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لإرادة النوعية، تنبيهاً على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب، إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف، للزيادة في الاعتبار. والدابة: ما دب على وجه الأرض. وغُلِّب هنا الإنسان، فَأُتِى بضمير العقلاء، مراداً به الإنسان وغيره(١) وقد تكرر ضمير العاقل ثلاث مرات. الأول: ﴿فَمِنْهُم﴾ والثاني والثالث بواو العطف ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن سنن العرب في الكلام أنه إذا اجتمع العاقل مع غير العاقل يُغَلَّب العاقل عليها جميعاً. وهذا التغليب في الآية باعتبار أنه هو المعني والْمُخَاطَب بذلك. وهذا من دقائق البيان.

ثم يلفت سبحانه وتعالى العقول إلى المشاهدة والمعاينة لما يرونه من تلك المخلوقات، بتفصيل هيئة مسيرها على الأرض ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ فمن تلك المخلوقات من يمشي على بطنه، وهي الزواحف ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ وبعضها يمشي على قدمين فقط كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ وبعضها يمشي على أربع كالحيوانات من البهائم والسباع. ثم يقرر سبحانه وتعالى للعباد كمال مشيئته ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيخلق عَزَّ وجل ما يشاء وفق إرادته وحكمته. ثم يثبت جَلَّ شأنه بهذا التفاوت في الخلق عظيم قدرته على تصريف الأمور: خلقاً وتدبيراً وفق ما يريد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن الله تعالى لا يعجزه شيء يريد تقديره وتكوينه. فكل مخلوقاته تحت قدرته وسلطانه ومشيئته، فله كمال الملك والقدرة والمشيئة. مما يستوجب عليكم كمال الطاعة له عَزَّ وجل. مما يفيد أهمية التفكر والتدبر في خلق الله تعالى، وأن من تفكر فيها أذعن لله تعالى بالتوحيد والملك والسلطان والطاعة والانقياد له وحده لا شريك له، وقدم طاعة الله تعالى على مراده وهواه.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٩٨/٨)

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى لدلائل قدرته ووحدانيته، ورحمته، وعظيم تدبيره وخلقه لما في الكون من عجائب صنعته، يُجلِّي ويوضح سبحانه وتعالى كريم تفضله بجزيل عطائه لما أنزل من البينات المقروءة في القرآن الكريم، الدالة والمبينة للحق، حتى أنه لم يبق عذر لمعتذر من عباده. فقال تعالى ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ لقد أنزلنا على رسولنا القرآن العظيم المشتمل على الأمثال المضروبة، والحكم البينة الواضحة، والإرشاد المفصل، والأحكام الشرعية، والتفاصيل لكل ما يتحقق به نفعكم وهدايتكم، لمن أراد الرشاد. وقد سماه الله تعالى بالآيات ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ ﴾ أي: حجج وعلامات وبراهين، وبما يفيد الجمع، أي: ليست آية واحدة بل آيات كثيرة، يعضد بعضها بعضا، ويقوي بعضها بعضا، ثم أكده بلفظ البينات ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ ﴾ بما يؤكد الوضوح الذي لا لبس في إقامة الحجة الواضحة الجلية.

ثم يذكر جَلَّ جلاله مشيئته في الهداية ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإن الله تعالى له الحكم والمشيئة المطلقة، فيهدي ويوفق من يشاء من عباده إلى طريقه المستقيم، الذي يوصلهم إلى خير الدنيا والآخرة. مما يبين ويفيد أنه لو شاء لألزمكم بالهداية، فإن عدم امتثالكم لا يعني خروجكم عن قدرته وإرادته، فلو شاء لألزمكم بما يريد، فلستم بخارجين عن سلطانه وقدرته. وفي عدم هدايتكم عقوبة لامتناعكم. وقد وصف الله تبارك وتعالى هدايته بأنها طريق مستقيم ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ مما يعني أن آياته البينات مستقيمة لا عوج فيها أبداً، بما يتأكد أنها من عند خالقهم عَزَّ وجل، وأنها بهذه الاستقامة تحقق سعادة الفرد والمجتمع في جميع أحواله وأطواره وعلاقاته، وذلك لاستقامتها، لأنه صادر من العالم بما خلق، وبما ينصلح به العباد، مما يفيد أن غيرها من المناهج والقوانين البشرية ممتلئة بالاعوجاج، لأن مبناها لا يخلوا من الأخطاء والرغبات والأهواء، وبالتالي فإن من استعاض بغير منهج الله تعالى أهلك نفسه وغيره ممن يتعامل معهم.

ثم يخبر الله تعالى عن أحوال نوع من الناس مع آياته البينات الواضحات بالحجج والبراهين، وهم المنافقون ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فمن الناس من حاله هو إظهار الإيمان ثم يتولى عن ما آمن به، وهم طائفة المنافقين ﴿ وَيَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ فصنف من الناس يُظهر الإيمان بالله تعالى وبالرسول، ويقرر التزامهم بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك نفاقاً منهم، ولكنهم يكذبون في ذلك. يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم، أظهروا عدم الرضا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أحدهما استمر على النفاق والمواربة، وفريقاً لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر، بمعصية الرسول علناً[١] ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ ثم من بعد إظهار هذا الفريق لإيمانه، يعرض عن إيمانه الذي أعلنه. فإن حقيقتهم أنهم ليسوا بمؤمنين ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، بل منافقون، يُظهرون الإيمان ثم يُعرضون عن قولهم وما شَهِدُوا به على أنفسهم بالإيمان والتصديق. مما يكشف بهذا: أن هناك من له نوايا وأطماع، ويتخذ الإيمان وسيلة، ثم ينسلخ منه في إعراض عجيب، فإن كلمة ﴿ يَتَوَلَّىٰ ﴾ تفيد الإعراض بعد الموافقة، وهو قولهم ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ﴾ فمن دخل أو عرف حقيقة الشيء ثم تولى عنه يكون أعرض بعد علم ومعرفة. مما يفيد أنهم خرجوا من النفاق إلى دائرة الكفر، وانحازوا إليها. فنفى سبحانه وتعالى عنهم الإيمان ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فيقرر الله تبارك وتعالى كفرهم، بنفي الإيمان عنهم. وفي هذا توبيخ وزجر لهم بما تقرر في حقهم.

ثم يوضح الله تعالى المزيد من أحوال هؤلاء المنافقين ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ فمن أحوال المنافقين السيئة التي تبين معصيتهم ونفاقهم أنه إذا حصلت خصومة، واحتاجوا إلى الفصل فيها، ودُعُوا إلى حكم الله تعالى ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إلى كتابه وشريعته سبحانه وتعالى ﴿ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وما يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم بشريعة الله عَزَّ وجل ﴿ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ فإذا قسم منهم يُعرض عن ذلك الطلب، وذلك الحكم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فيشمل إعراضهم عن الاستجابة ابتداء، وعن الحكم بعد صدوره.

وقد اشتمل البيان الكريم في غزارة ألفاظه على بيان حالهم عند دعوتهم للحكم بشريعة الله، فقد تقدم اعتراضهم حرف ﴿ إِذَا ﴾ الذي يفيد المفاجأة غير المتوقعة ﴿ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ بأن يكون منهم الاحتجاب والتمنع عن حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهم يُظهرون الإيمان. فكيف يكون ذلك

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٢٠٠)

منهم إلا أنه دليل على نفاقهم، ثم عين فريق منهم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ ليدل على أن البقية باقون على نفاقهم، ومتسترون بما هم عليه من النفاق، وأفاد الإعراض ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عدم القبول بما دُعُوا إليه.

ويؤكد نفاقهم أنه حال كون الحق لهم يقبلونه وهم منقادون إليه، وكأنهم مجبرون، لأن المصلحة لهم ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ فإذا كان الحق في صالحهم، وأدركوا ذلك سواء بعد أو قبل الحكم ﴿ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ يأتوا لمجلس الحكم، ويقبلوا به، ولكن قبولهم ليس رضاً منهم بأصل ومصدر الحكم، بل لأن فيه تحقيق مصلحة لهم، حيث وصف تبارك وتعالى حال مجيئهم بأنهم ﴿ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أي: يأتوا مسرعين منقادين إليه لتحقيق مصلحتهم، وهم كارهون وممتعضون من المجيء لمكان الحق، مما يدل على كرههم. فهو وصف دقيق لصورة وحالة هيئتهم.

ثم يأتي من الله تعالى اللوم لهم، ولتفكيرهم، ولمقاصدهم، وأحكامهم، وعموم نفاقهم ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ فيثبت الله تعالى نفاقهم بأسلوب التعجب والاستنكار لأفعالهم، ولما في قلوبهم من الريبة﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ سؤال استفهام تنبيهي، يقرر ويفيد الاستقباح والذم لهم، بما في قلوبهم من مرض النفاق والكفر الذي استحوذ عليهم، فنقل صحة قلوبهم من أصلها إلى وقوع المرض الذي يجعل صاحبه يُعرِض عن الحق إلى الباطل. وهو سؤال يكشف سوء قلوبهم. بما يفيد تقرير مرضها. ثم يردف ذلك السؤال التقريري بسؤال آخر يبين وجهاً من أوجه ما يعتقدون من الريبة ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ ﴾ أي: أم شكوا في الحكم، وفي القرآن الذي أحكامه أصل العدل، فأصابهم القلق من ألا يُحْكَم لهم بالحق، فَيُجَار عليهم في الحكم، مما يفيد أنهم يريدون الحكم وفق ما في قلوبهم من الهوى والمراد. وأن الريبة متحققة في قلوبهم، لأن ورود السؤال من الله تعالى هو سؤال إثبات وتقرير، وليس سؤال استعلام، فإنه العالم بالقلوب وما تخفيه الصدور، وتكنه وتسر به. ولكنها أسئلة تعليم وبيان، واستثارة وتنبيه للأفهام.

ثم يردف الاستفهام الثاني باستفهام ثالث: ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أو أَبَلَغَ أمرُ الشك بهم إلى الخوف من الحيف في الحكم، أي: أم بلغ الخوف بهم والشك والريبة إلى درجة ظنهم الظلم والجور من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم في الحكم؟ فيكون الحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً؟ مما يفيد طعنهم في شريعة الله تعالى، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم. وهو كفر مخرج من الملة. وورد تقرير حالهم بصيغة السؤال التقريري ليكون أبلغ في ذمهم، واستنكاراً حالهم، وكشفاً لِمَا انطوت عليه قلوبهم وعقولهم، وبما يفيد أنهم كذلك كما ذكرنا من وصف حقيقتهم. لأن السؤال من الله تعالى لا يكون إلا تقرير للحقيقة، لأنه يعلم

حالهم، فلا يحتاج عَزَّ وجل إلى سؤال. وفي هذا استثارة الانتباه لشأنهم وحالهم. ليحصل منه التعليم وقوة البيان للعباد.

فهي أسئلة ثلاثة توضح ما انطوت عليه قلوبهم من المرض النفاقي، والشك والريبة، والطعن في دين الله تعالى، وفي رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يستوجب الاستجابة لأحكام الله تعالى، وأن يكن ظن المؤمن محل ارتياح. قال القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم، لأن الله سبحانه وتعالى ذم من دُعِي إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذم(١) مما يفيد أنه يمتنع في أحكام الله تعالى من الكتاب والسنة الظلم لأحد أبداً.

وفي هذا السؤال ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ إثبات مخالفتهم لحكم الله تعالى ورسوله، لما في قلوبهم من الشك والباطل، فرموا حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالظلم والجور. بينما هو في غاية العدل، وكمال الإنصاف في إحقاق الحق وإبطال الباطل. ثم ينتقل البيان إلى الحكم عليهم بما يستحقون ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم بخروجهم عن الحق والعدل، وعدم رضاهم به. مما يفيد أن حكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم هو كما العدل والإنصاف، وأن أحكام الله تعالى مبرأة مما يعتقد المنافقون ويتوهمون. لفساد قلوبهم، فتنزه وتعالى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عن ذلك علواً كبيراً لا حدود له.

ومن جميل البيان أن انتقل الحكم عليهم بحرف ﴿بَلْ﴾ الذي انتقل به الأسلوب من الاستفهام إلى خبر الحكم عليهم بما يستحقون، ونفي حكمهم بالجور والظلم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وإثباته عليهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وليست ﴿بَلْ﴾ هنا للإبطال، لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة، فإن منها مرض قلوبهم، وهو ثابت. ولا دليل على قصد ابطال القسم الأخير خاصة، ولا على ابطال القسمين الأخيرين(٢) فالأقسام الثلاثة المتقدمة قد تقررت فيهم، ثم أورد سبحانه وتعالى الحكم المتوافق مع الأوصاف الثلاثة التي تقررت فيهم.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة المؤمنين حين يُدْعَون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، فإن تفاعلهم وتجاوبهم هو الاستجابة بلا تردد، بعكس المنافقين الذين يتهمون ويظنون الجور والظلم في حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٤/١٢)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٠٣/٨)

﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فحال المؤمنين هو حال تجاوبٍ وسَمْعٍ وطاعةٍ. فإذا تمت دعوتهم إلى الله تعالى ورسوله ليحكم بينهم في أي أمر وشأن ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ سمعنا النداء للحكم، وسمعنا الحكم، وأطعنا نداء الله تعالى ورسوله، والتزمنا بإنفاذ حكم الله تعالى ورسوله صلى اله عليه وسلم. وفي هذا مدح وثناء لحقيقتهم، والذي أتبعه الله تعالى بتزكية إيمانهم وفلاحهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فهؤلاء هم الفائزون بالحق والخير، ونيل مطلبهم ورجائهم، والنجاة مما يكرهون، فهو فلاح تام في الدنيا والآخرة.

بل من دقائق البيان أن حصر وقصر الفوز والفلاح فيهم فقط ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لينتفي الفوز عمن لم يستجب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. بل حتى مطلع التوصيف للمؤمنين ورد بصيغة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ فحصر قول الاستجابة في المؤمنين فقط، ليفيد أن هذه هي حقيقة الإيمان عندما يُدْعَون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم. كما ورد بيان هذه الآية الكريمة على سبيل الحقيقة التي عليها المؤمنون، فإن هذه هي حقيقتهم في التجاوب والامتثال، الذي يفيد الرضا والاستسلام وكمال الطاعة. كما أن الآية توضح أيضاً ما يجب أن يكون عليه كل مؤمن من الامتثال والطاعة. فهكذا يجب أن يكون حال المؤمنين مع شريعة الله تعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى حال من يمتثل لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم هم الفائزون ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فكل من يطع الله تعالى ورسوله، ويجمع معها خشية الله تعالى، وهو الخوف من ربه بما كان منه من الذنوب والتقصير، وكذلك يتقي الله تعالى فيما هو قادم وعازم عليه. فهؤلاء هم الموصوفون بتحقيق الفوز لهم في الدنيا بالتوفيق ومحبة الله تعالى لهم، وفي الآخرة يكون فوزهم بالجنة التي وعدهم الله تعالى بها. مما يفيد أن غيرهم من الكافرين ليس لهم شيء من ذلك. فتحصيل ذلك بثلاثة أمور: الأول: الطاعة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو الامتثال في مسيرة الحياة. والثاني: الخشية مما مضى من حياتهم ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ وهو الخوف مما حصل من الذنوب والتقصير في مسيرة الحياة. والثالث: التقوى المتعلقة بمستقبل مسيرة الحياة ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ التي تعني التحرز المقترن بالخوف من الوقوع في الذنوب، والتقصير في الامتثال فيما هو قادم من حياتهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: فيما أمره

به وترك، وما نهاه عنه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل[١] كما وردت بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يفيد ملازمتهم لذلك في جميع أطوار حياتهم.

ثم النتيجة، وهي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وهو الربح العظيم بما يعطيه الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة. ومن دقائق محتوى الآية الكريمة أنها عالجت أحوال الإنسان، وبينت له منهج المؤمن، وكيف يجب أن تكون عليه حياته ليتحقق له الفوز العظيم. ومن دقائق البيان أن حصر وقصر الفوز والفلاح فيهم فقط، لينتفي الفوز عمن لم يستجب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. كما وردت بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يفيد ملازمتهم لذلك في جميع أطوار حياتهم.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين وكيف تعاملهم في مسيرة حياتهم من الطاعة، ومن الخشية والتقوى، يعود بعد هذا الفاصل إلى حال المنافقين فيستكمل شأنهم في النفاق، وصور تعاملهم النفاقي، وشدة كفرهم، فإنهم لما كرهوا حكم الله تعالى وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنهم يقسمون بالله تعالى بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال تعالى ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فقد أقسم هؤلاء غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وبلغتها قدرتهم من الأيمان المغلظة، بأنه إذا أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج للجهاد فإنهم يخرجون معه من غير تردد. فيكشف الله تعالى نفاق الذين عدلوا عن طاعة الله تعالى وقبول حكمه بأنهم أقسموا بالله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٠٩)

تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ فلقد جزم هؤلاء المنافقون غاية الجزم المؤكدة بالأيمان المغلظة بالخروج والمشاركة في الجهاد حين يُطلَب منهم ذلك ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ فيما هو مستقبل الأيام القادمة ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ أي: ليسوف يشاركون بالخروج معكم في القتال.

وكانت الإيمان هي القسم والحلف بالله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ مما يدل على أنهم يعتقدون بأن الله تعالى ربهم، فيما يظهر منهم، ولكنها من باب التقية، ومن المواربة. ومعنى ﴿ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي منتهى طاقتهم ووسعهم من الأيمان وغايتها، وأعظم ما وصل إليه علمهم، وبلغتها قدرتهم. من بذل الجهد في الشيء حتى يبلغ أقصى طاقته ووسعه وقدرته. فقد وَثَّقُوا نيتهم وعزمهم بالأيمان الموثقة على استجابتهم للمشاركة في قتال العدو. وهي لإفادة وتُوضِّح المبالغة في إظهار الإخلاص، والعزم على الوفاء بما أقسموا عليه. مما يدل على قوة النفاق إلى درجة تغرير الغير بنواياهم التي لا يلتزمون شيئاً منها.

ثم يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يَرُدَّ عليهم بما يبين لهم أنهم كاذبون فيما أقسموا عليه ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ قل لهم يا أيها النبي ﴿ لَّا تُقْسِمُواْ ﴾ لا تكلفوا أنفسكم القسم بالله تعالى كذباً وبهتاناً، فلا نحتاج إلى بذل الأيمان، فإن طاعتكم هي ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ فإن طاعتكم معروفة ومكشوفة بالنفاق الذي لا يمكن الوثوق في أيمانكم، مهما بالَغْتُم فيها، وبَلَغْتُم غاية الجهد فيها. فهي طاعة قولية، لا تعدوا كلاماً باللسان، من غير صدق في الاعتقاد والأفعال. فإنه أمر قد عُرِف منكم. وقد أخبرنا الله تعالى بما انطوت عليه قلوبكم، فَعَرَّاهَا وعراكم لنا. وهذا التوجيه يفيد التوبيخ والزجر لهم، وتعرية ما في قلوبهم من النوايا الخبيثة الغادرة.

ثم يخبرهم الله تعالى بأنه مُطَّلِعٌ اطلاعاً كاملاً على بواطنهم كما هو عالم كذلك بظواهرهم، فالأمر سواء عند الله تعالى، فلا يخفى عليه شيء من شأنكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن الله تعالى خبير بكم، وبأعمالكم المنافية لاعتقادكم، وما تبطنون من النفاق. وانعدام الإخلاص والنوايا الصادقة منكم. فإنه خبير بما تعملون من طاعتكم بالأقوال، ومخالفتكم لها بالأعمال. وخبير بمن يطيع ويصدق في قوله وإيمانه. فإن إظهار الطاعة وإبطان النقيض لا تخفى على الله تعالى كما تخفى على المخلوق، فإن أغريتم المخلوقين بنفاقكم وتدليسكم؛ فلا يمكن أن يسري ذلك على الخالق سبحانه وتعالى، فهو يعلم السر وأخفى، فإنه خبير بضمائر العباد أجمعين، فرداً فرداً.

ثم يتم معالجة وضعهم من الله تعالى بتوجيه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يرشدهم ويوجههم إلى حقيقة الصلاح التي يجب أن يكونوا عليها، فقل للمنافقين أيها الرسول ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ

فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ قل يا أيها الرسول للمنافقين ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ امتثلوا لله تعالى بالطاعة، وامتثلوا للرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق والامتثال والطاعة والاستجابة الظاهرة والباطنة، المتمثلة في صدق الاعتقاد، وسلامة النية؛ المتوافقة مع العمل، وفق شريعة ربكم. وقد عطف الله تعالى طاعة رسوله على طاعته عَزَّ وجل، ليتبين أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام هي من طاعة الله تعالى، فمن لم يستجب للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه ما استجاب لله تعالى. وأن هذا هو ما يجب عليهم وعلى كل أحد من الناس ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ فإن أعرضوا وأدبروا عما أمرتهم وأرشدتهم إليه وجئتهم به ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ ﴾ فإن الذي على الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي: ما كُلِّف وأُمِرَ به من تبليغ رسالة الله تعالى، وقد فعل، وأدى ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ مما يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مكلفاً بهدايتكم، وإنما هو مكلف بتبليغكم. وأما شأنكم فإنه عائد عيكم ﴿ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ ﴾ أي: وعليكم أنتم الإجابة والاستجابة لما أُمرتم به من الطاعة والامتثال، التي هي قوله تعالى ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فواجبكم الطاعة الكاملة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن هداية الناس إلى دين الله تعالى هي بالتبليغ والإرشاد، وليس بغير ذلك من زرع الإيمان في القلوب. فمهمة الداعية تبليغ الرسالة للناس، وليس أنه مُلزم بتحقق الهداية منهم.

ومن لطائف ودقائق البيان الكريم: أن الخطاب كان متوجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم ابتداء ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ ثم اتجه الخطاب لهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ وفي هذا عناية ورحمة بهم للعودة إلى الحق، وترغيباً لهم في الثبات، والتأكيد عليهم بما هم مأمورون به أصلاً من لزوم الطاعة والامتثال، وإقامة الحجة عليهم بمخاطبتهم، ومخاطبة من يأتي بعدهم إلى قيام الساعة. مما يفيد عظيم وسعة رحمة الله تعالى، فلو عاملهم بما يستحقون لأهلكهم لما هم فيه من النفاق والكذب والخذلان.

ثم يبين لهم سبحانه وتعالى طريق العودة، وإمكانية التخلص مما هم فيه من النفاق ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ فإن أطعتم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاءكم به ﴿ تَهۡتَدُواْ ﴾ ترشدوا و تُصِيبُوا الحق وتظفروا به وبالهدى المفضي إلى السعادة. فكلمة الهداية تدل على مجامع الخير والسعادة في الدنيا والآخرة. بما يفيد: إن لم تطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم تُهلكوا، لأن الذي ضد الهداية هو الهلاك والشقاء في الدنيا

وفي الآخرة. ثم يؤكد تبارك وتعالى حصرية مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في التبليغ والإرشاد، وذلك بتقرير ما قبلها من تعيين مهمته عليه الصلاة والسلام، وتعيين ما يجب على من بلغهم من المنافقين في هذا المقام وهذه الآية الكريمة ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فالمستوجب على الرسول صلى الله عليه وسلم هو أن يبلغكم البلاغ الذي يتضح به الحق وضوحاً بيناً لما أراد ربكم منكم. وقد فعل صلى الله عليه وسلم ما أمره الله تعالى به، وأدى وأخلص حتى أنه كان من إشفاقه أن قال الله تعالى له في سورة الشعراء ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ وكذلك في سورة الكهف ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ وهذه تزكية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في تفانيه الشديد على إسلام الناس، وإبلاغهم بما نزل عليه من ربه تبارك وتعالى.

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى بوجوب طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن من أطاع واستجاب فقد اهتدى، يخبر الله تعالى بعد ذلك بالنتيجة والثمرة التي هي بيان لمستقبل المؤمنين من النصر والتمكين في الأرض، بما يفيد أن من خالف الرسول صلى الله عليه وسلم لن يكن له إلا الذل والهوان والهزيمة، وسوء المقام، وسوء المنقلب ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بوعده للمؤمنين من التمكين والنصر والعزة، والظفر بالنصر على الأعداء، وبكل خير، بشرط طاعته وإفراده بالعبادة وفق ما شرع، وهو شرط لتحقيق التمكين. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وَعْدٌ من الله عَزَّ وجل بتحقيق ثمرة موصوف يجب الاتصاف به، وهو تحقيق الاتصاف بالإيمان، وهو التصديق الكامل الجازم بكل ما أمر به من أركان الإيمان، إضافة إلى عمل الصالحات ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي: القيام بشريعته ودينه الذي جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وأن وعْدُ اللهِ تعالى حق كائن لا محالة، فإن تحقق هذا من المؤمنين؛ فإنهم موعودون بوعد التمكين ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ليجعلنهم يرثون أرض الكفار، فيكونون ملوكها وساستها ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كما استخلف أسلافهم من المؤمنين، كما استخلف بني إسرائيل بعد أن أهلك عَزَّ وجل فرعون ومن معه من الجبابرة والطغاة بمصر، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، والوعد الثاني:

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ وهو إعلاء الإسلام، بأن يظهره على كل دين، ويجعله عزيزاً مكيناً، وخص هذا الدين بأنه ﴿ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أي: الدين الذي رضي الله تعالى أن يكون لعباده، وأنه خاتمة الأديان. مما يفيد أنه ناسخ لجميع ما سبق من الأديان السماوية التي سبقت هذا الدين الحنيف.

ثم يخبر عَزَّ وجل بوعد ثالث: وهو ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ بأن يُزيل عنهم ما كانوا عليه من الخوف والتشريد، فيجعلهم في أمن وعز ورخاء، وقوة وهيبة. ثم يؤكد جَلَّ جلاله الشرط الأول: وهو ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بشرط ثاني: شامل لما سبق: وهو ﴿ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ أي: يصرفون العبادة له سبحانه وتعالى، لا شريك له، طاردين ونابذين الشرك تماماً. فلا يكون له وجود بينهم. مما يفيد بطلان الشرك وفساده، وأن من أشرك مع الله تعالى في عبادته غيره أذله وأهانه العزيز جَلَّ في علاه، ولن يجعل له نصراً في الدنيا، ولا نجاة من النار في الآخرة، بل هزيمة في الدنيا؛ وعذاب في الآخرة.

ثم يبين تبارك وتعالى حال من كفر بعد هذه النعمة التي تحققت كما وعد بها سبحانه وتعالى ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فمن كفر بعد إنعام الله تعالى عليهم بالنصر والتمكين والأمن، فإنهم قد فسقوا، بالخروج من الحق إلى الباطل، وبالتالي سيخرجهم من التمكين إلى الذل والهوان، كما كانوا قبل ذلك. مما يفيد التحذير من قادم النعمة، ومن البطر بعد حلول الخير والتمكين، والجري وراء الشهوات والشبهات والهوى. وفي هذا بيان تحذيري من فتنة النعمة، مما يوجب إحسان النعمة إذا حلت، والثبات على الطاعة كما أمر تبارك وتعالى. فإن الذي أعطى بفضله يحرم ويأخذ ما أعطى إذا توفرت موجبات الأخذ والحرمان والعقوبة. وفي هذا بيان عظيم للمستقبل، ولشروط استمرار التمكين، وأسباب انحداره وزواله. فهو منهج واضح لتحصيل العزة في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا بالتمكين، وفي الآخرة بدخول الجنة.

ثم يعطف سبحانه وتعالى على ما سبق من الشروط شروطاً أخرى للتمكين ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فأول تتمتها ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وإقامتها تكون بأدائها وفق شروطها وأركانها وواجباتها، وعدم الإخلال بها. وهذا فيما يخص العلاقة بين العبد وربه. وثاني الشروط ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وهي الزكاة المفروضة، التي هي ركن من أركان الإسلام. وهذا من تمام العناية من الله عَزَّ وجل بأفراد المجتمع، من الفقراء والمساكين، وغيرهم من لأصناف الثمانية التي تجب فيهم الزكاة.

والشرط الثالث: طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ وهي طاعته في حياته، وطاعته بعد مماته، باتباع نهجه وسنته، وتحقيقها وكأنه بينهم صلى الله عليه وسلم.

ومقابل هذا يحقق الله تعالى لهم منه الرحمة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ أي: اعملوا ما أمركم به ربكم راجين أن يرحمكم الله تعالى. ودلالة ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ تفيد المتوقع منكم تجاه هذا الإنعام العظيم، لتعطي دلالة أن المتوقع منكم بعد هذا الإنعام أن ترجوا حلول رحمة الله تعالى عليكم. وهي تفيد كذلك الاستبشار، بأن رحمة الله تعالى قادمة لكم. وهي تفيد التعليل كذلك، فهذا الإنعام يعلل لكم نزول الرحمة. وهي تفيد الترجي، أي: ترجي العبد ثواب طاعته لله تعالى، والمتمثلة في رحمته التي يرجوها كل عبد من عباده. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في دفع النفس للأمل بالخير، وكذلك تربية الإنسان، وتوجيهه لما يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

ثم يوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى عدم الاكتراث بكثرة وقوة الذين كفروا، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، حتى لا يجعلوها عائقاً أمامهم ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ يُثَبِّتُ اللهُ تعالى عباده المؤمنين ببيان ضعف وضآلة قوة وكثرة الكافرين أمام إرادته سبحانه وتعالى.

﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فلا يكن في الحسبان والظن منكم عن الذين كفروا وخالفوا وكذبوا بك أيها النبي أنهم يعجزون الله تعالى، فإن من سنن ربكم الإمهال لهم، لأنه حليم عَزَّ في علاه. والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وفي نفس الوقت هو توجيه وإعلام للمؤمنين من خلال شخص النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه عليه الصلاة يدرك ذلك لمعرفته بربه عَزَّ وجل، ولكن لإفادة المؤمنين عامة، وإفهامهم عبر تلاحق وتعاقب الأزمان بهذا الحكم في شأن عدم معاجلة الكافرين بما يستحقون. فهو تصويب وتصحيح لكل حسبان يقع من المؤمنين، وتقوية لإرادتهم وموقفهم. وفي هذا إزالة ومعالجة لكل توهم في عدم معاجلة الله تعالى للكافرين بالهلاك.

فليست كثرتهم وقوتهم تعجز الله تعالى في هذه الدنيا، الذي هو واقع يعيشونه. حيث حدد سبحانه وتعالى موقع ومكان توهم العجز، بأنه حين وجودهم في الأرض على قيد الحياة ﴿ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فإنه لا ملجأ لأحد في الأرض من دون الله سبحانه وتعالى، فجميعهم مقهورون بسلطان الله وقدرته، وفي متناوله عَزَّ في علاه. فإن قوة الله تعالى كما وصفها ربنا عَزَّ وجل في سورة الفتح ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ ﴾ بما يفيد أن هلاكهم وهزيمتهم يسيرة على الله تعالى، ولكن الله تبارك

وتعالى حليم، يمهل ولا يعجل. وفي هذا إزالة لما قد يكون من توهُّم الكافر، وتوهُّم الإنسان من صعوبة هزيمتهم، أو تأخر الأخذ على أيديهم، نتيجة كثرتهم، وقوة عتادهم.

مما يفيد: وجوب التوكل على الله تعالى، مع إحسان الظن به جَلَّ جلاله في النصر، مهما كان من العدو. بل يؤكد ربنا تبارك وتعالى كرهه وبُغْضَه للكافرين، وذلك بإعلان وبيان عظيم عذابهم ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فإن المأوى الذي سيؤلون إليه في الآخرة هو النار وبئس المصير. ثم أكد شدة عذابها بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فبئس المآل الذي سيؤول إليه الكافرون، وهي النار التي أُعدت لهم. فإن مصيرهم في الآخرة إليها. وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا المصير الذي سيؤولون إليه بأبشع وأقبح أنواع الوصف ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فكلمة ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ تفيد البؤس الذي سيحل بهم من شدة المصير الذي سيؤولون إليه، وهي تفيد أقصى قوة الذم وأبلغه. إذ تجمع كلمة (بئس) جميع صفات الذم كلها، فهي أبلغ وصف عند إرادة عظيم الذم وأبلغه. وفي هذا بيان لمآل الكافرين في الدنيا بالهزيمة، وفي الآخرة ببئس المصير. ومن دقائق البيان كذلك أن (بئس) ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ واقعت عليهم، وأنهم هم الذاهبون إليها بما كسبت أيديهم، كما تقع على المصير والمآل ذاته، الذي هو العذاب الشديد.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى دلائل التوحيد، وبيان مآل الكافرين يعود السياق الكريم في هذه الآيات إلى تناول أدب الدخول إل المنازل، التي شرع الله تعالى بيانها في صدر هذه السورة الكريمة، والتي كان أولها في معالجة دخول الأجانب بعضهم على بعض، ودخول البيوت غير المسكونة، وما يتعلق بغض البصر وحفظ الفروج. وفي هذه الآيات يتناول أوقاتاً محددة، وأشخاصاً محددين ممن يكثر اختلاطهم بحكم الصلة. ليظهر دقة ما تناوله القرآن من دقائق الآداب. فيقول الله تبارك وتعالى موجهاً المؤمنين ومبيناً لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ

تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

فابتدأ الخطاب الكريم بياء النداء لتوجيه المؤمنين نحو أدب الاستئذان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يفيد الانتباه والاهتمام لمضمون ما ناداكم ربكم له عَزَّ وجل، وأهمية ما يدعوكم ويرشدكم إليه ربكم سبحانه وتعالى، لأن نداء العظيم الجليل إنما يكون لأمر عظيم، وكذلك إذا نهي عن أمر فإنما يكون نهيه عن شر وبيل. ثم عَيَّن الْمُنَادَون، وخصهم بأفضل وأكرم الأوصاف وأجلها، وهو الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من آمنتم بربكم، وصدقتم نبيكم، وما جاءكم به من لوازم الإيمان. وفي هذا تزكية لهم بإثبات إيمانهم. وقد شمل التوجيه الرجال والنساء من المؤمنين. وفي هذا التعيين والوصف لهم بالإيمان هو إكرام من الله تعالى لهم، إذ يخاطبهم بأفضل وأجل الأوصاف، مع أنهم عبيده، وهو ربهم وخالقهم. مما يعلم الإنسان أدب الخطاب مع غيره، فإذا كان الله تعالى يخاطب عبيده المؤمنين بأفضل الأوصاف، فكيف لا يكون بين المتماثلين في الجنس البشري، خاصة بين المؤمنين أنفسهم.

ثم يلي ذلك التوجيه الكريم الأمر بالاستئذان، المسبوق بلام الأمر ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾ ليأخذ الإذن منكم في الدخول ﴿ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ﴾ فالصنف الأول: الأرقاء من إمائكم، من الذكور والإناث، وهم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ ويدخل فيهم الخدم، ونحوهم. والصنف الثاني: الصغار في السن ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ ﴾ وهم الصغار من الأطفال دون البلوغ، الذين هم في سن الصبا، فلم يبلغوا سن البلوغ. وذلك لمعرفة البالغ بالعورات، وما يصح وما لا يصح الاطلاع عليه. فلديهم الإدراك الطبيعي مما يكون عليه حال الإنسان من الملابس التي يرتديها، والشأن والهيئة التي يكون عليها. وهذا يستوجب أن تُعَلِّمُوهم بآداب وأوقات دخول البيوت والاستئذان، لأن التعليم من لوازم الامتثال والتطبيق، وتحقيق المطلوب. كما أن في تخصيص هذين الصنفين دون غيرهم لكثرة دخولهم وخروجهم من البيوت.

ثم حدد تبارك وتعالى تلك الأوقات ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ أي: ثلاث أوقات، الأول: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وهو الوقت الذي يكون فيه المؤمن نائماً في فراشه، أو يقوم فيه من نومه، وهو متخفف من بعض ملابسه التي لا يحب أن يراه بها أحد، ولا من هيئته التي لا يرغب أن يقابل بها أحد، وكذلك هو الوقت الذي يلبس فيه ثياب اليقظة. وأما الوقت الثاني فهو ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ أي: وزمن ووقت تخففكم من ثيابكم وقت الظهيرة. وهو وقت القيلولة من وسط النهار، والتي يستريح فيها الإنسان من مشاق العمل، فيتخفف من بعض ملابسه، فيضعها عنه، حتى يستريح ويقيل قيلولته. بل وأبرزت وأظهرت الآية

الكريمة في هذا الوقت حال وشأن الإنسان حين الظهيرة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ لإفادة أن علة وسبب هذا الوقت متعلق بتخففكم من كمال التستر، أي: وقت ظهور ما يكره الإنسان أن يراه فيه أحد من أولئك المأمورين بالاستئذان.

وأما الوقت الثالث فهو: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ وهو الوقت الذي يتجرد فيه الإنسان من ملابس الخروج والظهور، ليتخذ بدلاً منها ثياباً مناسبة لحاله وهو في منزله. فهذه الأوقات، هي أوقات خاصة، يكون حال الإنسان فيها غير حاله عند الظهور، ومقابلة غيره من الناس. فأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بمنع العبيد والصبيان من الدخول عليهم في هذه الأوقات الثلاثة إلا بإذن منهم. ومن دقائق التوجيه الكريم أن الأمر بالاستئذان لم يحدد فيه طريقته وكيفيته، ليستوعب جميع أنواع مستجداته، من الطرق على الباب، والنداء، وما استجد من وسائل وطُرُق الاستئذان الحديثة، كالجرس، والهاتف، وغيرها من وسائل طلب الإذن في الدخول والمقابلة.

ثم يجمع تبارك وتعالى علل وأسباب الاستئذان في جملة بليغة المعنى والدلالة ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فإنها ثلاث عورات، وهي جمع عورة كائنة لكم، وتطلق العورة على ما ينبغي ستره، أو يتحرج منه الإنسان من الملابس والهيئة التي يكون عليها. فهي لفظة جامعة لجميع دلالات ما لا يحبه الإنسان، ولا يرغب أن يراه فيه أحد من الناس، ولا أن يقابل فيها أحد وهو بتلك الهيئة. لأن الإنسان في تلك الأوقات يضع عن نفسه ملابس الخروج والظهور والمقابلة، مكتفياً بأقلها كلفة، وأخفها هيئة وحركة، وذلك بحسب عادات الناس في هذا الباب. فإنها حق من حقوقكم الواجبة فرضاً من الله تعالى لكم، بأن لا تُمكِّنُوا مماليككم وصغاركم من الدخول هجوماً عليكم أو خلسة إلا بإذن منكم. فيكون المنهج الأدبي والأخلاقي هو عدم تمكين المماليك والخدم والصغار من الدخول إلا بإذن من أهل البيت في هذه الأوقات الثلاث.

ثم يُفسِح سبحانه وتعالى عن الاستئذان فيما عدا تلك الأوقات الثلاثة، فيرفع الأمر بالاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ فليس عليكم ولا عليهم حرج أيها المؤمنون في خارج هذه الأوقات الثلاثة. فخص وعَيَّن الطرفين تدقيقاً في البيان ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنتم يا أهل البيوت ﴿وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم الموالي والصغار ﴿جُنَاحُۢ﴾ أي: حرج في الدخول من غير استئذان ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقات الثلاث. وهو مظهر من مظاهر التيسير في شريعة الله تبارك وتعالى.

ثم علل عَزَّ وجل سبب رفع الحرج في غير تلك العورات الثلاث ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بسبب كثرة التردد بالدخول والخروج فيما بينكم. فلا يلزم الاستئذان من المماليك والخدم والصغار الذين لم يبلغوا الحلم فيما عدا تلك الأوقات الثلاثة، لأنهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لأن الأصل في علاقتكم مع هؤلاء المماليك والصغار مبنية على كثرة ترددهم عليكم، فهي حاجة متبادلة بينكم ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ دخول بعضكم على بعض. فأنتم تحتاجونهم، وهم يحتاجون إليكم، فكثرة حاجتكم المتبادلة تُوجِب كثرة التردد، فلا تستغنون عنهم، ولا هم يستغنون عنكم. بل ورد التعليل بكلمة ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ والتي هي من صيغ المبالغة في كثرة الدخول والخروج عليكم. بما يفيد كثرة التردد بين الأشياء عموماً. ولذلك سُمّي الطواف بالكعبة طوافاً، لأن الطائف يدور تردداً على كل جهة من الكعبة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بمثل هذا البيان التشريعي من ربكم تبارك وتعالى يوضح لكم المعالم والإرشادات والتوجيهات التي تُوصِلُكم للخير والسعادة، بما يبينه ويشرّعه من الأحكام الحكيمة التي تعالج شؤونكم، وترفع الحرج عنكم، لأن الله تعالى عليم بكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فربكم عليم بأحوالكم، وما تحتاجونه من تشريع وغيره. وكذلك سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٞ﴾ بأن يضع الأمور موضعها، بما يناسب الحال، ويعالج الشأن بأحسن الأحكام والتشريع. مما يبين أن فضل هذا الدين على الناس عظيم، إذ يشرع لهم ربهم به ما يحتاجون إليه، وما يعجزون عن تشريعه، وما لا تصل له عقولهم وتفكيرهم، فيعلمهم الآداب التي تضبط حياتهم، وتبعدهم عن الفتن ما ظهر منها وما بطن، فإنه دين الحشمة والوقار، ومكارم الأخلاق. فيوجه سبحانه وتعالى عباده بأحسن الآداب وألطف الأساليب. فالحمد لله تعالى على نعمة الإسلام من كل وجه.

ثم ينتقل البيان الحكيم إلى استيفاء ما يتعلق بحال الأطفال إذا بلغوا مبلغ الرجال ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فإذا انتقل حال الأطفال الطوافون عليكم إلى مرحلة الاحتلام، فليستأذنوا كاستئذان الكبار ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ مما يفيد: أنه يجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات، ويجب عليكم أن تعلموهم وتربوهم على ما هو واجب عليهم من الاستئذان ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أسوة واقتداء بمن كان قبلهم ممن انتقلوا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الاحتلام والبلوغ،

ويدخل في ذلك الإناث والذكور، من الأحرار. فالبالغ يستأذن في كل وقت، والطفل والمملوك يستأذن في العورات الثلاث. يذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: أنه إذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم. وأن كلمة ﴿مِنكُمْ﴾ تعني: من أحراركم، فلا يدخلون عليكم إلا بإذن، في أي وقت من الأوقات[١] وعن يحي ابن كثير رحمه الله تعالى، قال: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في الأوقات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبير. ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه[٢]

ثم يقول تبارك وتعالى ممتناً على عباده بعظيم تشريعه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بمثل هذا البيان التشريعي من ربكم تبارك وتعالى يوضح لكم المعالم والإرشادات والتوجيهات التي تُوصِلُكم للخير والسعادة، بما يبينه ويشرّعه من الأحكام الحكيمة التي تعالج شؤونكم، وترفع الحرج عنكم، لأن الله تعالى عليم بكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فربكم عليم بأحوال النفوس، ودقائق الأمور، وبكل شيء مما تحتاجونه من التشريع، وغيره. وبما يصلحها ويهذبها، ويمنع عنها الشر، ويجلب لها الخير. وكذلك سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ بأن يضع الأمور موضعها، بما يناسب الحال، ويعالج الشأن بأحسن الأحكام والتشريع. فيوجه سبحانه وتعالى عباده بأحسن الآداب وألطف الأساليب. فالحمد لله تعالى على نعمة الإسلام من كل وجه.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٥٨/١٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٥/٣)

أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان والتوجيه الكريم إلى حال صنف العجائز من النساء، فيورد التخصيص لهن بعد التعميم لجميع النساء بعدم اظهار زينتهن في قوله تعالى ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ حيث عمم جَلَّ جلاله فيما سبق عن عدم ابداء الزينة إلا ما ظهر منها. فيخصص في هذه الآية المباركة ما كان المنع فيه عاماً. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يُشَخِّص الله سبحانه وتعالى التوصيف للمقصودات بدقة في هذا التوجيه الكريم والبليغ، وبأدق الوصف، وأكمل بيان، وأشمله، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والضحاك، وقتادة: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض، وييئسن من الولد[١] وذكر ابن الجوزي قول ابن قتيبة: يعني: الْعُجّزَ، واحدها: قاعد. ويُقال: إنما قيل لها: قاعد، لقعودها عن الحيض والولد. وكذلك ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: ولا أراها سُمِّيتْ قاعداً إلا بالقعود، لأنها إذا أسنت عجزت عن التصرف، وكثرة الحركة، وأطالت القعود، فقيل لها: قاعد. بلا حرف الهاء، ليدل حذف الهاء على أنه قعود كبر. كما قالوا: امرأة حامل، ليدلوا بحذف حرف الهاء على أنه حمل حَبَل، وقالوا في غير ذلك: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها[٢] وهذا يدل على دقة اختيار صفة القعود ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لأن كلمة ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ ﴾ تدل على شيء من العجز الذي يمنع أو يحول دون إتيان النفس لما ترغب. أو قعدت وعجزت الرغبة لديهن، فأصبحت عاجزة، لا رجاء فيها.

بل ومن دقة تحديد صفة القعود أن قيدها بعدم رغبتهن في الزواج، فقال تعالى ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ وهن اللاتي لم يبق لهن تشوف إلى الزواج نتيجة الكبر في السن، وعجز الرغبة، مما يدل على انتهاء رغبتهن في الرجال، فتكون مُقَيِّدَةٌ لمفهوم أن القواعد من النساء هن اللاتي انقطع عنهن الحيض، فانقطاع الحيض قد لا يمنع التشوف للرجال، ولكن بقصره بعد بيانه وتحديده بالقواعد على اللاتي لا يتطلعن للزواج، فكان أبلغ في التحديد. فالعلة تجمع بين كبر السن بانقطاع الحيض، وبين عدم الرغبة في النكاح الذي هو الزواج، كناية

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٧٤)

عن عدم رغبتهن في الرجال. فلو أن امرأة لا ترغب في الزواج، وهي شابة، فلا يشملها هذا البيان، لأنها ليست من القواعد اللاتي انقطع عنها الحيض؛ وكبرت في السن. وهذا والله من إعجاز الوصف والتحديد والتعيين بالقصر المنضبط بالتوصيف الشامل الجامع، والمانع لكل احتمال خارج عن الهدف والمراد وعلته وغايته.

فبعد أن حدد تبارك وتعالى نوع النساء المقصودات تحديداً دقيقاً أظهر وبيَّن المسموح به لهن على وجه التخيير، مع بيان الأفضل مما هو مأذون لهن فيه. فقال تعالى فيما أذن لهن فيه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ فنفى عنهن الحجر والحرج ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ فليس على من كانت حالتهن بما وصف سبحانه وتعال حرج ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أن يتخففن من بعض ثيابهن التي تكون فوق الثياب الساترة أصلاً، وهو الجلباب، أو العباءة، وذلك عند مقابلة الرجال. وفي القول: بعض ثيابهن، لأن الأصل المعروف من الشريعة الستر التام والكامل، كما ورد سابقاً من آيات الحجاب، فالتبعيض وارد ومتحقق من الاستقراء. والوضع هو الرفع والإزالة وطرح الشيء. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: عند الرجال. ويعني بالثياب: الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار، هذا المراد بالثياب[١] ثم قيد سبحانه وتعالى هذا التيسير بقيد عظيم في دلالته، وهو ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير مظهرات لزينتهن. فلا يكن وضع الجلباب وطرحه عنها بقصد إظهار زينتهن التي تكون تحت الثياب.

والتبرج هو التكشف والظهور، فلا حائل يسترها، وهو تكلف إظهار الزينة، بمعنى التعمد في ذلك. فيجب عليهن عدم إظهار الزينة التي يجب ألا يراها الرجال، فيلزمها بأن لا تظهر محاسنها للرجال الذين لا يحق لهم الاطلاع عليها. فلا تضع عن نفسها الجلباب والرداء لإبراز وإظهار زينتهن. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والصحيح أنها كالشابة في التستر، إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار، قاله ابن مسعود، وابن جبير، وغيرهما[٢] وفي تخصيص الإذن لهذا النوع من النساء لانصراف أنفس الرجال عنهن، فأذن الله تعالى لهن بذلك، ولم يبحه لغيرهن، ليدل أن الأصل هو كمال الستر، فأباح لهن منه بقدر ما قد يحتجنه، لضعفهن البدني، مع الحرص على عدم إظهار زينتها أبداً. لأن تبرجها بالزينة مع إخفاء ما خفي من عيوبها قد يثير غيرها ممن ضعفت نفسه. ففي ذلك درء للمفاسد، وبأن لا يستغل المرء ما أباحه الله تعالى لغير أسبابه الشرعية.

ثم يذكر سبحانه وتعالى الأفضل والأكمل مما أباحه لهن ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وإن يُبقين عليهن ثيابهن من الجلباب ونحوه خير وأفضل لهن، وإن كان ذلك جائز لهن. فيحثهن تبارك وتعالى بأسلوب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥/٣٧٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٣-٢٠٤)

التخيير المُحَفِّز إلى الأكمل والأجمل في حقهن لمن استطاعت ألا تتخفف. فكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ تجمع جميع أنواعه ودرجاته، فهو خير لهن في دينهن، وفي تجنب أذية ضعفاء النفوس لهن، وأبقى لاحترام سنهن، وكذلك ليكن قدوة لغيرهن، وغير ذلك من صنوف الخير وأنواعه ودرجاته.

ثم نسب سبحانه وتعالى تحصيل الخير لهن. بأنهن المستفيدات ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ فأنتن المستفيدات من هذا الخير. وورد الاستعفاف بصيغة المبالغة ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ والتي تفيد تفضيل الاستعفاف على طرح وترك الجلباب ونحوه، لإظهار ترجيح الاستعفاف على المباح، بأنه الأفضل، حتى وإن كان في لبسه وارتدائه معاناة وتكلف ومشقة. فالعفة تحتاج إلى تمنع عن غلبة المراد وهوى النفس، بالمجاهدة وقوة الإرادة والعزيمة. ففي تَحَمُّل معاناته خير وأفضل وأحسن من تركه. فخير لها أن تتحمل معاناة لبس ثياب التستر إن كان على الكبير في السن معاناة ومشقة. لأن التعفف في هذا المقام هو تمنع عما لا يليق. ولذلك نقول تَعَفَّف، أي: تكلف العفة. وهنا تكلفت الاحتشام، فاحتشمت عن المباح، فرغبت في الحشمة عما سواها.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بعظيم صفاته الموجبة لاستحضار مراقبته في النفس، والمحفزة للالتزام بتقواه في كل شأن، وفي كل وقت وحين، فيختم الله عَزَّ وجل الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فإن الله يسمعكم، فيسمع أقوالكم، ويعلم حالكم، ونواياكم، ومقاصدكم، مما يُوجب عليكم أن تحذروه وتتقوه في أفعالكم وأقوالكم ونواياكم. فاجعلوا هذا العلم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ نَصب أعينكم، ليعينكم ذلك على التقوى في الطاعة والامتثال. وفي هذا ما يفيد التحذير من مخالفة منهج الله تعالى، ووجوب تقييد الأقوال والأفعال بنصوص الكتاب والسنة.

وفي هذ البيان العظيم غاية جمال تراكيب الكلام، بما يحقق دقة البيان وتوضيح المراد. وفيه استخدام أسلوب التحفيز للارتقاء بالمكارم. وفيه بيان فضل العفة والاستعفاف حتى عن بعض المباحات. وفيه أولوية ترك بعض المباحات إجلالاً للحياء، أو لأمر فاضل خير من الأخذ به. وفيه أسلوب التحفيز بإظهار الخيرية، والحث عليها، وفيه ترك تقدير الأخذ بالمباح لصاحبه، وأنه لا تثريب عليه إن أخذ به، وإكباره إن تورع عن المباح الذي لا ضرر في تركه، أو أن تحصل به منفعة فاضلة، أو أن يدرأ به مفسدة متوقعة أو غير متوقعة، وفيه جمال الحياء والحث عليه، وفيه جمال أساليب القرآن في المعالجة، وأنه يجب بأن لا تكون المعالجة بالمغالطة، بل بالصواب والتحفيز.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما امتن الله تعالى به على أصحاب الأعذار، وهم الأعمى والأعرج والمريض، وذلك برفع الحرج عنهم، وذكرهم بأعيانهم رفعة لشأنهم، ورحمة وعناية من الله تعالى بهم، إذ رفع المشقة

عنهم، سواء في الجهاد، أو غيره، لتنتظم مسيرتهم في الحياة من غير حرج. فقال عَزَّ وجل ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فقد تناولت الآية الكريمة الترخيص لأصحاب الأعذار المعينين بأعيانهم، وهم الأعمى، والأعرج، والمريض، فليس عليهم إثم في ترك الأمور الواجبة التي يعجزون عنها، كالجهاد ونحوه. وليس عليكم أيها المؤمنون حرج في أن تأكلوا من بيوت أولادكم، أو بيوت آبائكم، أو أمهاتكم، أو إخوانكم، أو أخواتكم، أو أعمامكم، أو عماتكم، أو أخوالكم، أو خالاتكم، أو من البيوت التي وُكِّلتُم بحفظها من أصحابها، أو من بيوت الأصدقاء، ولا حرج عليكم في أن تأكلوا مجتمعين، أو متفرقين. فأباح الله تعالى الأكل من بيوت من سماهم في هذه الآية الكريمة.

وابتدأ البيان أولاً: بالتسمية العينية للمذكورين من ذوي الأعذار، مع ربط ذكر كل واحد منهم بلفظ رفع الحرج قبل بيان موطن رفع الحرج عنه. وفي هذا نوع من التشويق للمتابعة، وتعميق السياق؛ لإظهار تنوع دلالاته مع ما بعده، وكذلك لبيان الاهتمام بالمذكورين المعينين من خالقهم تبارك وتعالى. فأولهم: الأعمى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فليس ثمة إثم على الكفيف الذي فقد بصره. ليشمل جميع ما يتحرج به من الواجبات التي لا يمنعه عنها إلا ما هو فيه من مانع الرؤية البصرية. ثم ذكر تبارك وتعالى الحالة الثانية: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ وكذلك ليس ثمة حرج على الأعرج الذي قَصُرَ به العرج عن أداء ما هو واجب عليه. ثم ذكر عَزَّ وجل الحالة الثالثة من ذوي الأعذار، وهو المريض ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فليس ثمة حرج على المريض الذي قَصُرَ به المرض عن ما هو واجب عليه بسبب مرضه.

فهو رفع التكليف عن الأعمى في الشأن الذي يُشترط فيه البصر. ورفع التكليف عن الأعرج في الشأن الذي يُشترط فيه القدرة الكاملة على المشي. ورفع الحرج عن المريض في الشأن الذي يُشترط فيه الصحة والعافية. وهذا من مراعاة شريعة الله تعالى لذوي الأعذار، فأعذرهم عَزَّ وجل عما هو اجب على غيرهم. ليدل

على سماحة هذا الدين العظيم، وحفاوته بأتباعه، وتنظيم مسيرتهم بتشريع حكيم، وأنه لا يمكن أن يصدر إلا من عليم خبير. مما يوجب على المؤمنين إعذار أصحاب الأعذار، وقبول أعذارهم، وأن يلتمسوا لهم ما يُبْقي لهم الوفاء في حقهم، وأن يعاملونهم وفق أعذارهم، ولا يعزلونهم منها.

وقد أظهر المفسرون أنواعاً من المراد برفع الحرج وموطنه، فقال البعض: قُصِد به إعذارهم من الجهاد في سبيل الله تعالى، على أساس أن ما بعده من البيان مستأنف لا علاقة له بما قبله. وهناك من رأى أن الامتناع كان حاصلاً من ذوي الأعذار أنفسهم، خشية من عدم رغبة الناس في مشاركتهم. ورأى البعض أنه مرتبط بما بعده، وأن فيه معالجة لقضية الأَكل مع هؤلاء، خشية أن يلحقهم الإثم، لقصور هؤلاء الأصناف عن بلوغ مرادهم من عين الطعام الذي ربما يشتهون شيئاً منه ولا يبلغونه، ولا تبلغه أيديهم، وذلك بسبب عدم الرؤية عند الأعمى، فيأكلون الأجود عنه، أو ما يشتهيه من الطعام دون علمهم بما يشتهي ويريد، أو قصور وصول اليد عند الأعرج، فيقصر به الحال عن تناول واختيار ما يشتهي ويريد، ومثله المريض الذي قَصُرَ به المرض عن تناول مراده مما يشتهيه من الطعام. والمتأمل يجد أن براعة السياق، وإعجازه قد استوفى جميع الحالات، ومعالجتها جميعاً، وبسياق واحد، من غير تكرار وإعادة، وهو من إعجاز البيان، كما أنه من إعجاز التشريع البديع، إذ استوفت دلالته تنوع أقوال المفسرين من غير تعارض ولا تناقض.

فيكون السياق في حال حرج الإثم، أو تعفف أهل الأعذار من كراهية الناس لهم، أو فيما يتعلق بالجهاد ونحوه، فيكون البيان كالتالي: فأولهم: الأعمى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ فليس ثمة حرج، في مؤاكلة الكفيف، سواء حَصَّل مراده كاملاً، أو حَصَّل بعضاً منه، على أساس عدم معرفة الناس بما يدور في نفوس بعضهم البعض، ولا حرج عليه هو في مؤاكلته لغيره. ولا حرج عليه فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله تعالى، فإنه معذور من ذلك.

والحالة الثانية: خاصة بالأعرج ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ وهو الذي فقد كمال التمكن من الجلوس، فَقَصُرَ به العرج عما يريده بسبب ما فيه من حالة العَرَج، فلا يستطيع مزاحمة غيره على الطعام؛ حتى يستوفي كمال مراد كغيره من الطعام. فإنه كذلك ليس ثمة حرج على مؤاكلته، ولا حرج عليه هو في مؤاكلة غيره. ولا حرج عليه فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله تعالى، فإنه معذور من ذلك.

ثم ذكر عَزَّ وجل الحالة الثالثة: المتعلقة بالمريض ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فليس ثمة حرج على المريض الذي تضعف إرادته وقدرته من شدة مرضه عن تناول ما يستوفي به حقه من الأَكل مع غيره، ولا حرج عليه هو في مؤاكلة غيره. ولا حرج عليه فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله تعالى، فإنه معذور من ذلك.

وفيها كذلك رفع الحرج، أو الإثم عن الأعمى وعن الأعرج وعن المريض في الأَكل من البيوت التي سماها الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة خاصة، وبقية الأقارب والأصدقاء، ومن توكلتم عنهم في بيوتهم.

فيشمل كذلك رفع الحرج عن المؤمنين عامة من أن يأكلوهم ومن معهم من بيوت أنفسهم ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فذكر تبارك وتعالى عموم المؤمنين بعد الأصناف الثلاثة ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ وجملة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ تعيين للمؤمنين عموماً من غير أصحاب الأعذار. أي: أنتم الأصحاء الذين ليس فيكم ما فيهم من الأعذار. فإنه لا حرج عليكم من مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض، ولا إثم مترتب على قصور هؤلاء الأصناف عن بلوغ مرادهم من عين الطعام الذي ربما يشتهون شيئاً منه، ولا تبلغه أيديهم وأنتم لا تعلمون عما يشتهون من الطعام.

ومن دقائق البيان أنه لم يذكر في حالهم الحرج، كما ذكره مع كل صنف من الأصناف السابقة، وإنما عطف حرجهم على من سبقهم من أهل الأعذار، لإفادة أن الحرج العيني واقع على تلك الأصناف الثلاثة أصلاً. فنفى سبحانه وتعالى حرج المؤاكلة، وإثم قصور هؤلاء الأصناف عن بلوغ مرادهم من عين الطعام الذي ربما يشتهون شيئاً منه، ولا تبلغه أيديهم، إما بسبب عدم رؤيته عند الأعمى، فيأكلون الأرغب أو الأجود عنه، أو ما يشته هو؛ دون علمهم بما يريد ويشتهي، أو قصور وصول اليد عند الأعرج عن تناول واختيار ما يريده، أو المريض الذي ضعفت إرادته وقدرته عن تناول ما يستوفي به حقه من الأَكل مع غيره من شدة مرضه.

وقد ذكر عَزَّ وجل موقع الحرج، وهو المؤاكلة ﴿أَن تَأۡكُلُواْ﴾ فعين موقع الحرج تحديداً؛ وذلك لمعالجة ما في نفوسهم من الشعور بالإثم. ولكن ثمة سؤال عن علة الحرج عند أصحاب تلك العلل من مؤاكلتهم لغيرهم، والجواب وهو لإفادة المساواة في رفع الحرج، ليس عليهم ولا عليكم. قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: إنما ذكر هذا، وهو معلوم، ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم[١] وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: ولما اجتمع المخاطب وغير المخاطب غَلَّب المخاطب لينتظم الكلام. وذكر بيوت القرابات، وأسقط منها بيوت الأبناء، ذلك لأنها داخلة في ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته[٢] وفي تحديد وتعيين بيوت الأصحاء وهو معلوم أنهم يأكلون من بيوتهم، هو من أجل مساواتهم بما بعده من البيوت المذكورة. لإشعارهم بأن أكلهم من بيوت من سيذكرهم عَزَّ وجل مساوياً ومعادلاً لبيوتهم من حيث رفع الحرج، فَذِكْرُهُ لنفي الحرج المتوهم. مما يدل على دقة السياق الكريم، وانتفاء أي كلمة زائدة. وليدل على عظيم إعجاز نظمه حتى في تراكيب كلماته وألفاظه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٠٦)

وعن سبب رفع الحرج عن مؤاكلة المذكورين هو بسبب ما كان من تحرج المؤمنين من أن تكون مؤاكلة أولئك فيها شيء من الباطل، بسبب قصور الأعمى والأعرج والمريض عن كمال إرادتهم في بلوغ ما يشتهون من الطعام وتنوعه. فقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن من تعدد وتنوع المفسرين في سبب ذلك: أن هذه الآية نزلت ترخيصاً للمسلمين الذين كانوا يتقون مؤاكلة أهل الزَّمَانة[١] في مؤاكلتهم، إذا شاءوا ذلك[٢] ومعنى أهل الزمانة: هم أهل العاهات والبلاء. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لما نزل قوله تعالى ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ تحرج المسلمون من مؤاكلة الأعمى والأعرج والمرضى، وقالو: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفي الطعام. فنزلت هذه الآية[٣] وفي هذا ما يفيد حرص المسلمين على التورع حتى في مؤاكلتهم لغيرهم، ليعطوا بذلك درساً خلقياً في مراعاة المسلم لغيره في الطعام وفي غيره. كما يفيد عناية الله تعالى بعباده، ورفع الحرج عنهم، بتشريع الأحكام التي تعالج حياة الإنسان بأحسن ما يكون.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تلك البيوت بعينها رفعاً للحرج، وهي: ﴿أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ ليدخل فيها أولادهم وأزواجهم، لأن دلالة كلمة ﴿بُيُوتِكُمْ ﴾ تدل على مساكنكم، ومن يسكن معكم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: مساكنكم التي فيها أهاليكم، وأولادكم[٤] ثم ذكر سبحانه وتعالى بيوت القرابات، وهي ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ ﴾ فأباح سبحانه وتعالى الأكل من بيوت القرابات المذكورين. وفي هذا تشريع لِمَا اعتاد الناس عليه، من بذل طعامهم للمذكورين من القرابات فيما بينهم. ثم ذكر سيحانه وتعالى نوعاً آخر من البيوت، وهو ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ وهي البيوت التي آلت إليكم مفاتيحها. فتتصرفون فيها بالوكالة. قال ابن عباس رضي الله تعالى

(١) يُقصَدُ بأهل الزَّمانة: أهل العاهات والبلاء، في كتاب المصباح المنير: وزمن الشخص من باب تعب، وهو مرض يدوم زمانا طيلاً (١/ ٣٤٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٠/١٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٧٥/٥)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٧/١٢)

عنهما: هو الرجل يُوَكِّل الرجل بضيعته، فَرَخَّص الله تعالى له أن يأكل من ذلك الطعام، والتمر، ويشرب اللبن[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى: أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة أو ولاية ونحو ذلك[٢] وفي إضافة المفاتيح للمُلك إفادة وإيضاح بأنه مقصور على مُلك التصرف، وليس ملك الأعيان التي هي البيوت. بما يفيد أنها ملك انتفاع، أو أداء خدمة، أو وكالة عن المالك الأصلي. وفي هذا دقة في بيان المقصود بأدق المعاني المؤدية لعين الدلالة بذاتها، وبأقصر وأقل الكلمات عدداً. مما يعلم المؤمن كيف يحرر القواعد والأنظمة والعقود، بما يتحقق فيه التحرز من الاحتمالات التي تخرج بالقاعدة عن مرادها.

ثم ذكر عَزَّ وجل نوعاً آخر من البيوت، وهو: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت أصدقائكم، وهم الذين بينهم مودة، فرابط العلاقة هي الصداقة. فلا حرج عليكم من الأَكل من بيوت أصدقائكم. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والصديق يكون واحداً وجمعاً[٣] فإن الحرج والإثم مرتفع عن الصديق. ومن جميل البيان ودقائقه تتالي الترتيب بحسب العلاقة ونوعها. وكذلك من معطيات البيان أن الله تعالى قَرَن الصديق بالقرابة، بما يبين ملاصقة المودة بين الصديق وصديقه إلى درجة أنها قُرِنَت بأفراد وأعيان القرابات. مما يبين عناية منهج الله تعالى بمن بينهم صلة مودة. بل وفي ذلك ما يحفظها وينميها، ويزيدها تماسكاً. والصديق مشتق من الصدق، لأنه صادق في مودته لصديقه، والواضحة في تعامله مع صاحبه، وسُمّي صديق لأن الصدق والإخلاص في المودة ظاهرة في تعامله مع صديقه، فهو الصادق في مودته، ويؤكد ذلك أنه جُعِل في منزلة القرابة، لمكانته ومنزلته في نفس صديقه.

ثم يبين تبارك وتعالى الانفراد والاجتماع في الأَكل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فلا حرج ولا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، لأن ﴿أَشْتَاتًا﴾ تعني: التَّفَرُّقُ والتَّوَزُّع، أي: المتفرقين والمتوزعين. فيشمل هذا الحكم البياني رفع الحرج عن هيئة التوافق في الاجتماع على الطعام ولزومه، واشتراطه عند تناوله، أو حالات عدم التوافق في الاجتماع على تناوله، ليستوفي جميع الأسباب، وجميع حالات الأَكل، فقد تكون هناك أسباب في التفرق، ناتجة عن التباين والاختلاف في تأخر المجيء والحضور، ونحو ذلك من الأسباب الحادثة. وقد ساوى البيان الكريم بين الحالتين ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ من غير تفضيل لأحدهما على الآخر، وفي ذلك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٠/١٧)
(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١٩/٣)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٢٥٦/٣-٢٥٧)

التساوي إبراز انتفاء الحرج. وفيه معالجة التحرج من الأكل منفرداً من غير صاحب الطعام، أو كبير الأسرة. وهو من باب توثيق التيسير واعتماده شرعاً، وإزالة الحرج عن المؤمنين. وهذا من كريم لطف الله تعالى.

ثم يوضح سبحانه وتعالى لعباده أدب دخول البيوت ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ فإذا ولجتم إلى البيوت فابتدأوا دخولكم بالسلام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: يسلم بعضكم على بعض، وقد وردت لفظة البيوت بالتنكير ﴿بُيُوتًا﴾ لتفيد جميع البيوت، سواء بيوتكم، أو بيوت غيركم. ووردت بأسلوب الشرط الذي يجب أن يكون منكم السلام حال دخولها ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ فيلزمكم السلام على أنفسكم ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ وورد التسليم بصيغة الأمر ﴿فَسَلِّمُوا﴾ وفي هذا اشتراط بقاء التحية ولزومها وعدم تركها، وإثبات استمرارها، بحيث لا تسقط بالتهاون فيها، نتيجة لكثرة التردد، وبحكم القرابة والصداقة، وكثرة المقابلة والالتقاء. فإنه يجب ألا تُسقطها كثرة المخالطة، مما يدل على أهميتها ومنزلتها، لما حوته من عظيم الدعاء. وفي هذا دليل على أهمية حفظ الآداب، وعدم تركها والاستهانة بها لأي سبب من الأسباب، فملازمة أصول الآداب مهمة مع القريب والبعيد، فإنها أمر وشأن مهم لانسجام العلاقات بين الناس. فكثرة المخالطة لا تبيح تركها وهجرها، أو تخفيفها.

وتدل كلمة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ على أنهم بمنزلة النفس الواحدة، وعلى تبادل المكانة والتحية بينهم ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ فهم بمنزلة ومقام أنفسهم مع بعضهم البعض من أهل البيت، وفي هذه الكلمة إبراز وإثارة للألفة والمودة والمحبة. وهذه التحية تكون بالذي حدده تبارك وتعالى، وهي تحية السلام التي من عنده عَزَّ وجل ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: التي شرعها لكم ربكم. قال السعدي رحمه الله تعالى: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١] ووصف سبحانه وتعالى هذه التحية بوصفين جليلين: الأول: أنها ﴿مُبَارَكَةً﴾ من البركة، لأن فيها الدعاء بالسلامة والرحمة من الله تعالى، مع مزيد البركة. والوصف الثاني لها، أنها ﴿طَيِّبَةً﴾ فبها تطيب القلوب والأسماع، لما فيها من الدعاء العظيم في معناها، والذي يتحقق به الأنس والمودة، خاصة وأنها من عنده تبارك وتعالى ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٢٠)

ثم يختتم سبحانه وتعالى هذا الإرشاد والتوجيه العظيم ببيان فضل امتنانه على عباده ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فبمثل هذا البيان التشريعي من ربكم تبارك وتعالى يوضح لكم المعالم والإرشادات والتوجيهات التي تُوصِلُكم للخير والسعادة من التآلف والتواد والتراحم والتواصل، ورفع الحرج بما يبينه ويشرّعه لكم ربكم من الأحكام الحكيمة التي تعالج شؤونكم، وترفع الحرج عنكم .

ثم يحث عباد المؤمنين على أن يتعقلوا ما أوضحه وبينه لهم، فيطبقونه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لتعقلوه وتمسكوا بتطبيقه وإنفاذه. فإنه بيان يتحقق لكم به الخير فاعقلوه بالفهم والتطبيق، ولا تتهاونوا فيه. فإن المطلوب والمتوقع منكم تجاه هذا البيان العظيم، أن تدركوا هذا الفضل فتطبقونه وتعملون به، وتتقيدون بأحكامه.

لما فيه من الخير الكثير. ولفظة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ تفيد التعليل، فهذا الإنعام بالبيان التشريعي يعلل لكم وجوب تَعَقُّلَهُ وتطبيقه. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه بأن حثه على ما يجب عليه من الأحكام والآداب، من خلال أسلوب استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم، ونحو القيام بما يجب عليه.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

يوجه الله تعالى المؤمنين بما يجب عليهم إذا كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر جامع، لضرورة ومصلحة، كالجهاد، بأن يكونوا معه، ولا ينصرفوا عنه إلا بعذر واستئذان ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فبدأ البيان الكريم بحصر وإبراز حقيقة الإيمان الحقيقي وعلامته ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما المؤمنون حقيقة صادقة بأنهم فعلاً ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فعلامته ومقياسه هو ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: حين يكونون مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر كبير، ذو أهمية، يستلزم اشتراك جماعة المؤمنين في شأنه، كالجهاد في سبيل الله تعالى ونحوه، فإنه يلزمهم الاستئذان من رسول الله صلى الله ليه وسلم. وفي هذا الشرط ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ رفعة ورفع لشأن ومقام النبي صلى الله عليه وسلم، وتنظيم لازم لحسن إدارة العمل الجامع، بما يحقق أهدافه ومقاصده. كما أن في وصفه بأمر جامع بيان لأهميته، مع استيفائه لجميع أنواع مفردات الأمر الجامع المختلفة، والمتعددة في أنواعها وعللها وأسبابها، ونوع المخصوصين بها. إذ ورد بصيغة النكرة ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهذا من بلاغة البيان وجزالته الذي هو مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم، على ما فيه من الإعجاز التنظيمي لمسيرة حياة المسلمين، وتفويض الصلاحيات، وتحديد المسؤوليات، وتعيين حدودها، وذلك وفق تنظيم وتعليمات وأسس دقيقة ومحكمة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن الأمر الجامع: من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع لمشورة، ونحو ذلك[١] فلا يذهبون عنه حتى يستأذنوا منه. مما يفيد أن من خرج من عنده عليه الصلاة والسلام من غير استئذان؛ فإن إيمانه ليس إيماناً حقاً، فإنه منقوص الإيمان. والاستئذان مؤشر بأن هناك أمر مهم لهم. لأن الأصل أنهم معه في الأمر الجامع، يداً بيد. مؤازرة له صلى الله عليه وسلم، وطاعة لله تعالى ولنبيهم عليه الصلاة والسلام. ويستفاد من ذلك في التطبيق العملي بعد وفاته لزوم الوقوف مع الإمام والحاكم المسلم في الأمر الجامع المهم، بكل وسيلة يستطيع المسلم القيام بها، ولا يخذله بالخروج عن الصف أو التخاذل.

وفي قوله تعالى ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ بيان بأن هذه الحالة هي جزء من عموم الطاعة في الأمر الجامع. فإن من تتمة حقيقة الإيمان الاستئذان حين ورود موجباته، لأن الله تعالى يقول ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ فهي حالة خاصة من معيتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: وافقوه وأطاعوه حينها على أمر مهم يجتمعون فيه معه صلى الله عليه وسلم ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ فلا يذهبوا فيما اجتمعوا عليه حتى يستأذنون من الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن الطاعة في الأمر الجامع هي جزء مخصوص من بين وجوب عموم الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا دلالة على دقة الضبط في

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٨/٣)

السياق الكريم، الذي يبين قوة إعجاز دلالاته. كما هو ضبط للعلاقات حين اتخاذ الأمر، وكذلك ضبط لشأن الجماعة في تصرفاتهم حين الأمر الجامع.

كما أن من فوائد النص الكريم ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ أن في تخصيص الأمر الجامع بالاستئذان؛ دليل على أنه في غير الأمر الجامع لا يجب، فكل بحسب ما هو عليه في شأنه. وهذا من رحابة تنظيم منهج الله تعالى لأمور مسيرة الحياة عموماً. وتنظيم مسيرة الحياة الفردية بما يناسب حالة وطبيعة كل أحد بمفرده. وتنظيم مسيرة حياة الجماعة في الأمر المشترك بما يناسب وضعها وحالها، ليتبين غزارة منهج الإسلام بما يحفظ للفرد تدبير حياته الخاصة. وفي نفس الوقت يحفظ للأمة مصالحها القائمة على أفرادها، واجتماعاتها، والتي لا تنصلح مصالح الفرد إلا بتحقيق مصالح الأمة، وذلك بتحقيق أمنها، ودفع الشر عنها، وجلب الخير لها، وحفظه، وتحقيق رخائها. مما يبين خطر الافتراق، وخطر عدم الارتباط بالقائد، وأن الإسلام دين انتظام ووفاء بالعهود والعقود، والمبايعة للإمام.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى لعباده تلك العلامة الإيمانية، وهي الاستئذان عند ورود الحاجة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فإن الذين يستأذنونك أيها النبي صلى الله عليه وسلم عندما تطرأ لهم حاجة ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فإن أولئك هم الذين صدقوا في إيمانهم، وفي هذا مدح وثناء على من اتصف بها، مع الحث عليها، وتقرير وجوبها، وتشجيع لهم على الاستئذان، وعدم الذهاب خلسة. كما أن في ذلك تعليم لهم بمنهج الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا الشأن. وتمتد دلالة وسلطان النص الكريم إلى المؤمنين مع ولاة أمورهم. فإن في هذا ثناء وتزكية لحقيقة إيمانهم بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن حقيقة الإيمان يُظهرها ويكشفها التطبيق العملي لشريعة الله تعالى. فمقياس الإيمان هو التطبيق والامتثال، فكلما كان المسلم أكثر تطبيقاً وامتثالاً لمنهج الله تعالى كان أكثر حقيقة في إيمانه، وبالتالي يستطيع المؤمن أن يعرف إيمانه بقياسه على مدى التزامه وتطبيقه لدين الله تعالى.

وفي استئذانهم دليل على قوة إيمانهم، وعلى حُسن أدبهم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم. وفي الاستئذان دليل إعلان التأدب مع القائد، وأنه يجب لزومه، وهو دليل على قوة التنظيم، وقوة الامتثال له. وربط للعلاقة بين الرئيس والمرؤوس. وأن على المرؤوس حفظ حق رئيسه، ووجوب طاعته، سواء وافق له على استئذانه أو لم يوافق له عليه. وفيه من الفوائد كذلك: أنه لا يلزم من الرئيس أن يوافق على إذن من استأذن، بل يقدر الحاجة لمن أراد أن يستأذن، وأن يراقب الله تعالى في ذلك، فيغلب ما فيه من المصلحة، وما يدفع به الشر. فلصاحب الإذن تقدير الموقف، وعلى المستأذن القبول بما كان من رئيسه.

وقد أكد سبحانه وتعالى صدق إيمان المؤمنين بحالة الاستئذان، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقد أكد سبحانه وتعالى بدلالة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حصر في هذا الموقف صفة المؤمنين حقاً بخصيصة الاستئذان، وذلك لتعدد صور وحالات حقائق الإيمان، والتي تتعدد بتعدد الحقائق العملية والتطبيقية لمنهج الله تعالى، كقوله عَزَّ وجل في سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ وكذلك في سورة الحجرات ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ ففي كل موقف عملي تظهر فيه حقيقة الإيمان، والتي تستوعب تنوع الحالات والمواقف.

ثم يُرشد ويوجه اللهُ تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بما يفعل مع من استأذن ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن استأذنوك لشيء من شؤونهم، فَقَدِّر أنت أيها النبي ذلك الموقف، ومدى حاجتك لمن استأذن، وحال الموقف الذي أنتم وهو فيه، فيقدر الرسول صلى الله عليه وسلم بقاء المستأذن أو الإذن له، فقد تكون هناك مصلحة راجحة في بقائه على حاجته الخاصة، إما لشجاعته، أو لحصافة رأيه، أو غير ذلك مما يقدرها النبي عليه الصلاة والسلام. فيقدم مصلحة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومصلحة دينه على مصلحته الخاصة. فيمنح الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الصلاحية في تقدير ذلك، بقوله عَزَّ وجل ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ فاسمح وأذن لمن ترى، بحسب تقديرك للموقف. وفي هذا من الناحية الإدارية إفادة التفويض للمسؤول بالصلاحيات التي تكفيه وتعينه على إدارة الموقف، بحسب تقديره وتقييمه. ومن أخلاقيات التعامل أنه لم يكلف الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتحقيق في سبب الاستئذان في ذلك الشيء الذي استأذن فيه المستأذن، فجعل تقدير الاستئذان للمستأذن، فهو أقدر وأعرف بحقيقة وأهمية ما استأذن له، وتقديره لشأنه ولشأن الأمر الجامع، وشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن معه من الصحابة من كل وجه. وفيه عدم البحث في الخصائص الشخصية. مما يفيد في الجانب الإداري، أن من استأذن من رئيسه فلا يمحص ويفحص علل الاستئذان، بل يُوكِل السرائر إلى الله تعالى، ولا يُحرج من استأذن.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يستغفر لمن استأذن ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾ اطلب المغفرة من الله تعالى لمن استأذن، لأنه ربما وقع المستأذن في تقصير مع الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك الاستئذان، فربما هناك تبعات بين المستأذن وبينك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. فارتكب إثماً لم يُقَدِّرْهُ المستأذن. فيتنازل صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ويطلب مع تنازله عموم المغفرة للمستأذنين، لأن البيان من الله تعالى لم يقيد الاستغفار بحالة أو إثم معين، بل كان عاماً. غير أن عموم السياق متعلق بالاستئذان.

ثم يبين تبارك وتعالى كريم فضله على المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيخبرهم بما لا يقطع الرجاء فيه عَزَّ وجل، فإن ربكم أيها المؤمنون متصف ومتحلي بالستر وإزالة الذنب، ومحوه عن المستغفرين، وأنه كذلك ﴿رَّحِيمٌ ﴾ بهم، من أن يعاقبهم بعد توبتهم منها. وفي هذا حث من الله تعالى لعباده بأن يتوبوا إليه من التقصير. مما يفيد أنه عَزَّ وجل لا يجرد أحداً من التقصير. وهذا من كريم رحمته، وعظيم امتنانه جَلَّ جلاله، مما يوجب على المؤمن أن يُكثر من الاستغفار والتوبة، وألا يقنط من رحمة الله تعالى. وأن يكون إزاء هذه الرحمة والمغفرة من الله تعالى مسارع للطاعة، ومبتعد عن المعصية.

ثم يرتقي التوجيه الكريم بمقام التأدب مع جناب النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك باستثنائه عن غيره في طريقة النداء، وصيغة التخاطب معه صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فقد اجتمع في مطلع سياق هذه الآية الكريمة ثلاث دلالات من قوله عَزَّ وجل ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾: فالأولى: النهي عن التأخر والإبطاء إذا دعاهم عليه الصلاة والسلام. فلا تجعلوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لكم بمثابة ومنزلة دعوة بعضكم لبعض؛ كما يكون بينكم من التساهل والتأخر والإبطاء في بعض الأمور والأحوال. وعن هذه الدلالة، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: حكاه الماوردي[١] والمعنى الثاني: قاله ابن عباس رضي الله عنهما: دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم موجبة، فاحذروها[٢] فالحذر من معصية وإسخاط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن دَعَا على أحدٍ فدعوته عليه الصلاة والسلام مستجابة. وهذا

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٧٨/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٨٨/١٧)

المعنى باعتبار علاقة هذه الآية بما قبلها، والمتعلقة بالذين يتسللون لواذاً، فتنالهم دعوة منه صلى الله عليه وسلم عليهم، فليحذروا ذلك. وهذا على سبيل التحذير والتهديد للمنافقين الذين يتسللون عن الأمر الجامع.

والثالث: أنه نهي للمؤمنين أن يدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير تأدب، بل يدعونه بأدب ولين وتواضع، وتشريف وتفخيم، فيجب أن يقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، ولا يدعونه باسمه، كما يدعون بعضهم بعضاً، بل يجب توقيره، عليه الصلاة والسلام. قال بذلك: سعيد بن جبير، وعلقمة، والأسود، ومجاهد، وقتاده[1]

وفي هذا دلالة على رحابة السياق الذي استوعب هذه الدلالات المتظافرة، وغير المتعارضة، وهو من الإعجاز البياني، بحيث يعطي السياق مجموعة من الدلالات التي لا تتعارض فيما بينها. كما أن في هذا عناية من الله تعالى برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال بيان أدب التعامل معه صلى الله عليه وسلم، وتوضيح منهج التأدب لأتباعه من المؤمنين معه عليه الصلاة والسلام في تلك الأحوال الثلاثة، التي أولها: أدب المناداة والتخاطب، وما يتبعها من التوقير والإجلال، والثاني: الحذر مما يُسخطه صلى الله عليه وسلم، فإنه مجاب الدعوة، والثالث: أنه يجب سرعة التجاوب مع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يأمر وينهى. وفي هذا تربية وتعليم للأمة على الأدب الرفيع مع النبي صلى الله عليه وسلم، حتى بعد مماته صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يُقال عند ذكره إلا موصوفاً بمقام النبوة أو الرسالة، وهو ما سماه الله تعالى به في القرآن الكريم، وهو: نبي الله، ورسول الله، عليه الصلاة والسلام، ولا يُقدم غيرها عليها من كلمات التفخيم، لأن النبوة والرسالة أعظم وصفين، فلو كان هناك وصف أفضل منه لذكره الله تعالى، ووصف به نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن كمال علمه بما يكون منهم مع نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في أنفسكم، وما تنطوي عليه ضمائركم من الإيمان والنفاق، ومن ذلك الذين يخرجون بطريقة التسلل ﴿ يَتَسَلَّلُونَ ﴾ وهو الانسلال بالخروج خفية وسراً ﴿ لِوَاذًا ﴾ وهو التستر، مخافة أن يُرى من غيره، فيتلاوذون بينهم، بحيث يتخفى بعضهم ببعض، فهم متلاوذون فيما بينهم. وهو بيان لما كان يقع من المنافقين. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين، يضم بعضهم إلى بعض، استتاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين، لما يرون من الاجتماع للصلاة والخطبة، فكانوا يفرون عن الحضور، ويتسللون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٣٧٨/٣)

في خفية، ويستر بعضهم بعضا، وينظم إليه اللواذ من الجهاد، وبه قال الحسن[١] وفي هذا تهديد لمن كان هذا أسلوبه من المنافقين، وبيان لهم بأنه قد علم بهم صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى.

وفيه تأكيد للمؤمنين بأن الله تعالى أخبر رسولهم صلى الله عليه وسلم بما كان من بعض القوم من المنافقين. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن حرف ﴿ قَدْ ﴾ أنها لتحقيق الخبر، لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا مستترين لم يطلع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فأعلمهم الله تعالى أنه عَلِمَهُم، وأعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك. ودخول ﴿ قَدْ ﴾ على المضارع يأتي للتكثير كثيراً[٢] وفي هذا تأكيد إيمان من آمن بأن الله تعالى مطلع على العباد، وأنه يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بما يكون من أحوال، فاحذروا من ربكم عَزَّ وجل. وفي هذا تهديد وتحذير للمنافقين، بكشف حقائقهم من النفاق. مما يفيد أهمية المتابعة، وأن عدم المتابعة تكشف ما يكون خفياً من الفساد والمفسدين. وتوضح أهمية تحقق الانضباط.

ثم يأتي التحذير العلني من الله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فليتوقى كل من يخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تصيبهم عقوبة قاسية، إما بفتنة أو بعذاب أليم. وقد تصدر فعل التحذير بحرف الفاء؛ في قوله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ﴾ ليفيد الترتيب، أي: ترتيب ما بعدها على ما قبلها. ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ فعلى الذين يخالفون أمره ونهيه صلى الله عليه وسلم، وجميع شريعة الدين وأحكامه، من أن تحل بهؤلاء المخالفين ظاهراً أو باطناً ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ وهي: الضلالة، والبلاء في الدنيا، ومنها فتنة القلب بما يتحقق به النفاق والكفر، أو البدع التي تفتنه عن دينه بسبب مخالفته لنهج النبي وشريعته صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أن عقوبة الله تعالى قد تكون بفتنة العبد القلبية التي تنعكس على نهجه في الدين، فينحرف عن الحق عقوبة له، مما يُوجب على المؤمن أن يتوقى من أسباب ذلك، والحذر من أن يقع في شيء من المخالفة، ويسأل الله تعالى السلامة. ثم يذكر سبحانه وتعالى النوع الثاني من العقوبة، وهي: ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو القتل في الدنيا، وعذاب جهنم في الآخرة. وأن شأنه أليم، فليس بالأمر السهل واليسير، مما يفيد الوعيد والتوبيخ والتحذير.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٨/٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٣١/٨)

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة النور بإظهار وإعلان عظيم ملكه، وقدرته، وسعة علمه الذي لا يغيب عنه شيء من ملكه سبحانه وتعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ لشد انتباه الْمُخَاطَبِين إلى عظيم ما بعدها من البيان، وأهميته، مما يوجب عليكم أن تعقلوه، لما فيه من الدلالات العظيمة التي تقودكم إلى الحقيقة الربانية، الموجبة لتحقيق ألوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى، فالأمر الأول: أن تعلموا ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن لله سبحانه وتعالى ملك السماوات وما فيها، وكذلك الأرض وما عليها. وبالتالي كل شيء ملكه عَزَّ وجل، وأنتم جزء من ملكه تبارك وتعالى. مما يستوجب الإيمان به، وتحقيق العبودية له وحده لا شريك له. والأمر الثاني: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فيا أيها العباد إن ربكم يعلم شأنكم كله، ولا يغيب عليه من أمركم ولو مثقال ذرة، وهو يعلم ما تكونون عليه من أحوال الطاعة أو المعصية، ومن الإيمان أو النفاق، بما يفيد أنه مجازيكم على ما أنتم عليه، فاحذروه، وأطيعوا، ولا تعصونه. ويفيد حرف ﴿ قَدْ ﴾ التحقيق، بأنه قد تحقق العلم بما يكون منكم. قال القرطبي رحمه الله تعال: ويعلم هنا بمعنى عَلِمَ[1] أي: قد عَلِمَ ما أنتم عليه من حال، فليس هناك ما تخفونه عنه.

والأمر الثالث: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فإنه حين رجوعكم إليه يوم القيامة يخبركم بجميع ما كان منكم. ويجازيكم بما عملتم، من خير أو شر. فيقرر سبحانه وتعالى عودة العباد إليه يوم القيامة. بما يفيد التحذير الذي يستوجب منكم الطاعة والامتثال لربكم عَزَّ وجل. والأمر الرابع: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ وهو تأكيد للأمر الثاني: الذي هو: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فالثاني: كان علمه خاص بهم، بينما الرابع: علمه عام لكل شيء ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ فعلمه بكامل ما في الكون كله، بحيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا الختام تنبيه للعباد بعظيم ملكه، وتمام وكمال علمه سبحانه وتعالى؛ بكل شيء عن خلقه، فلا يخفى عليه شيء من أمرهم، بما يفيد أن عليكم بعد هذا العلم أن تراقبوا الله تعالى في جميع شؤونكم، فتعبدوه بصدق ويقين.

تم بحمد الله إتمام سورة النور، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٣/١٢)